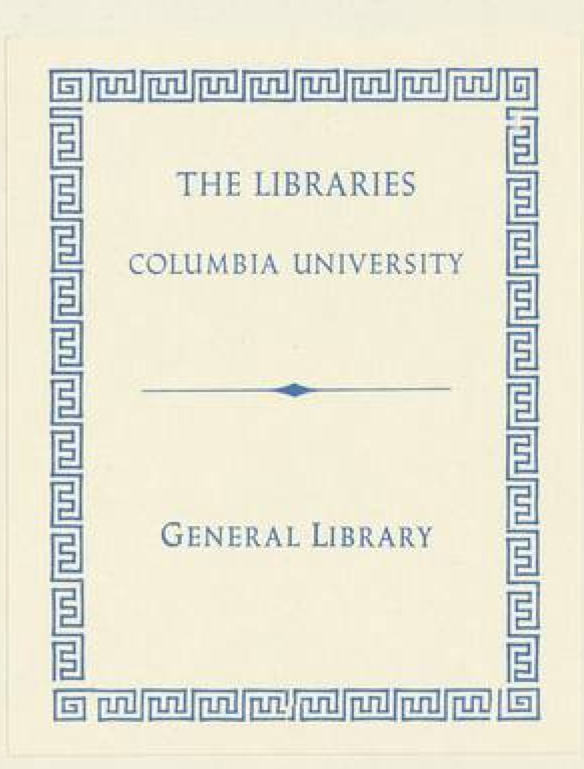
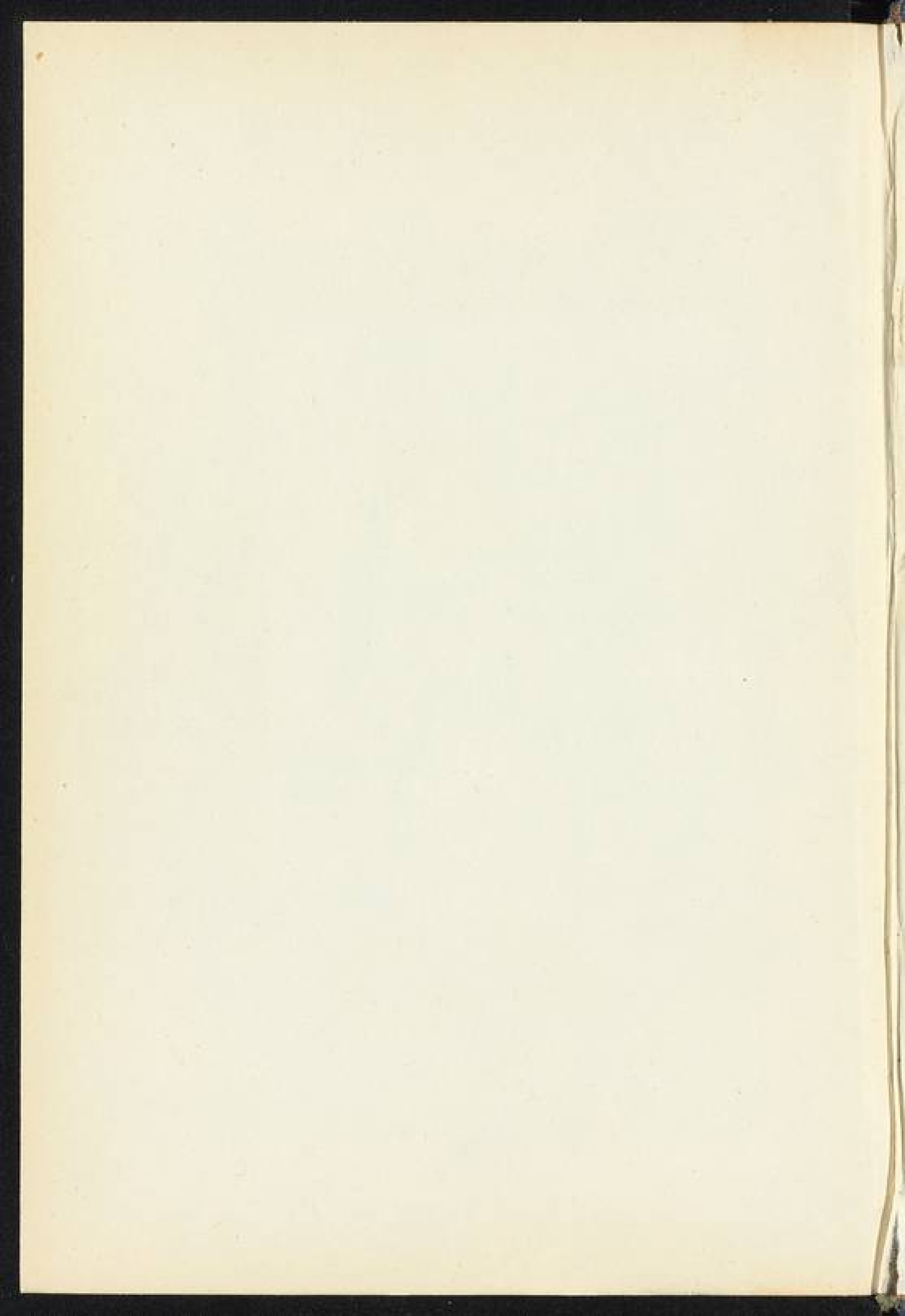



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٢

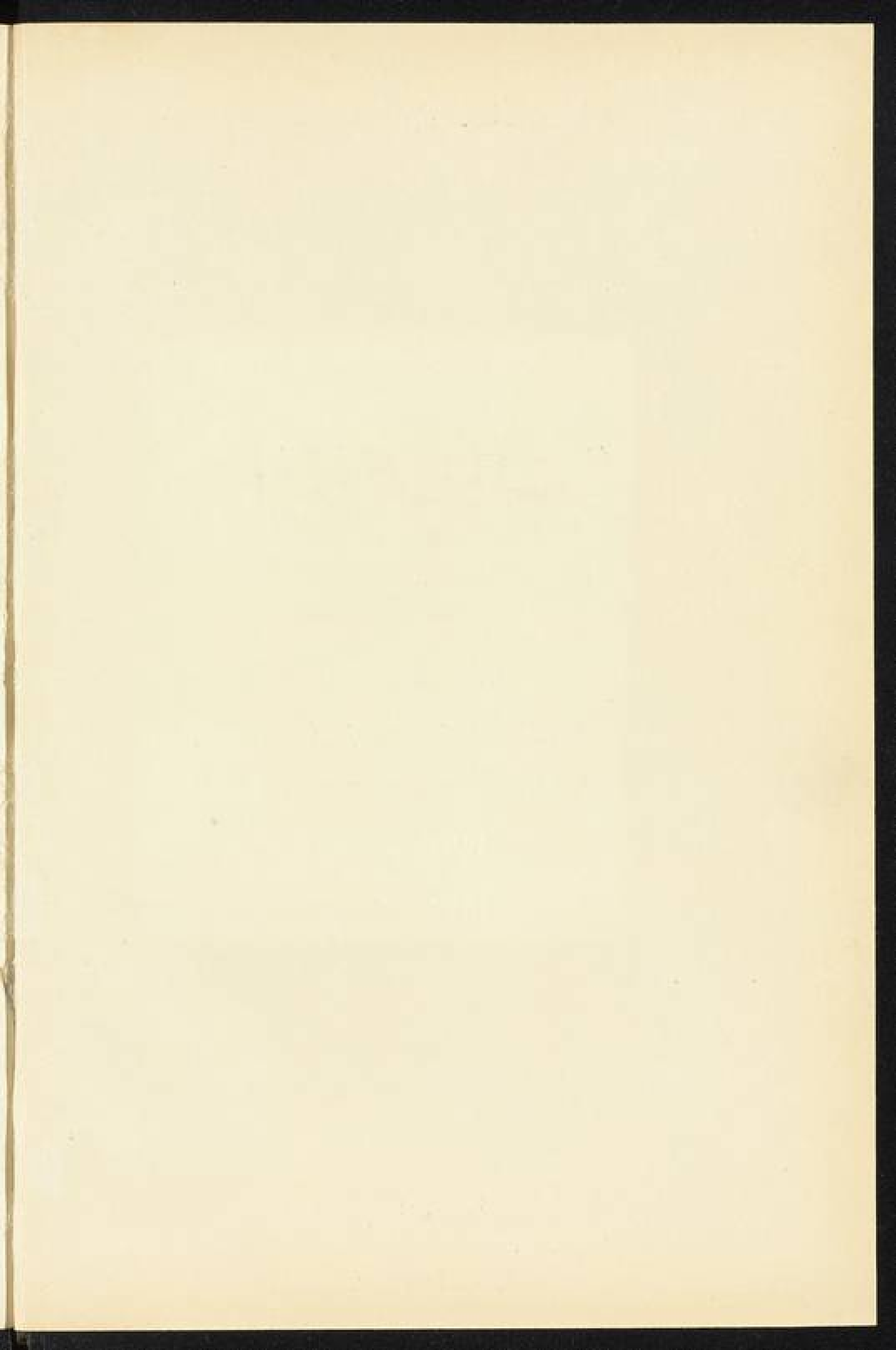
التراجم والسير

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

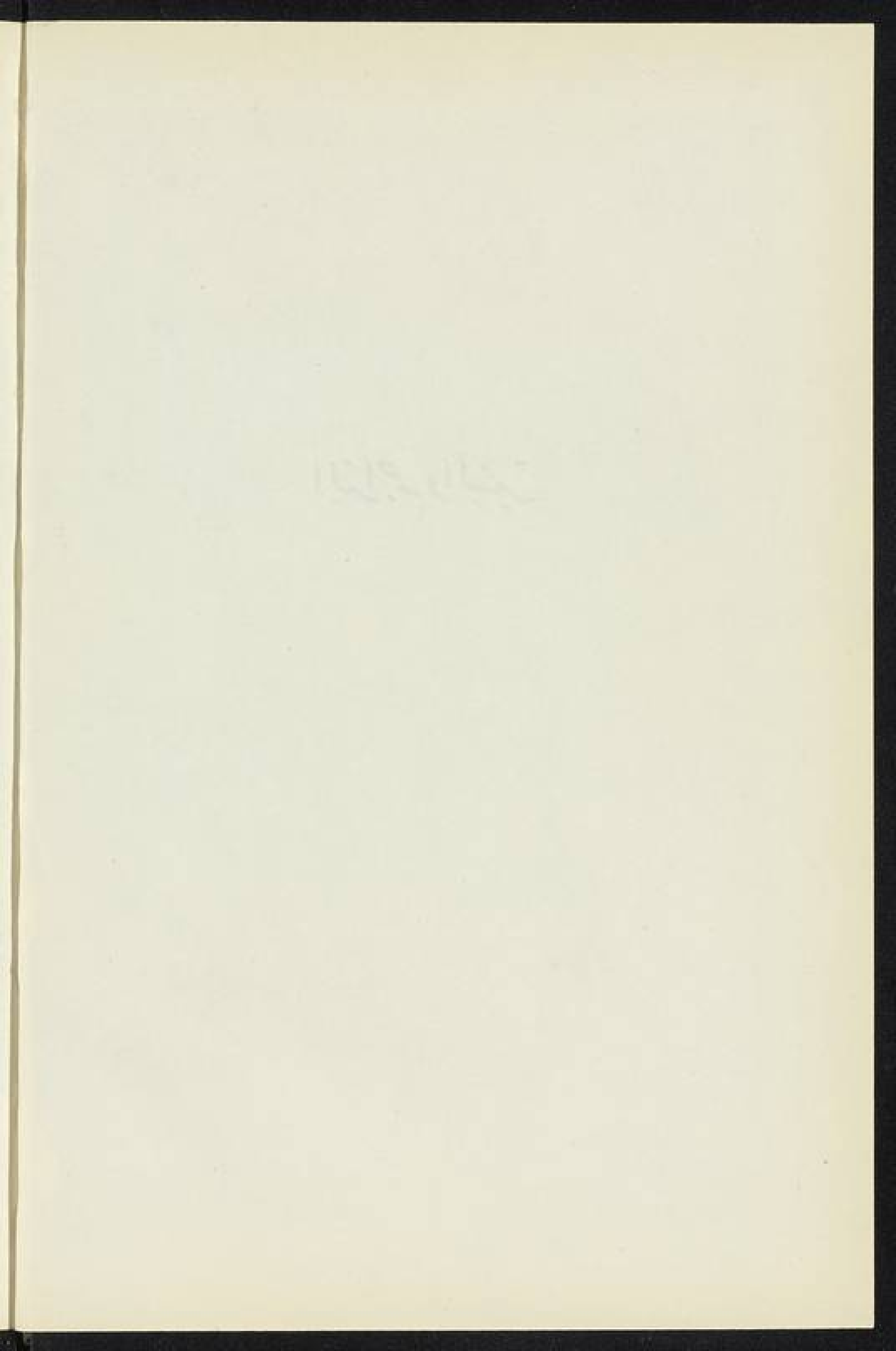
1955
1900

تصدرها

دار المعارف



التراجم والسير



فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٢

التراجم والسير

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكتبْ إلى اليوم – فيما نعلم – كتاب يعالج موضوع التراجم والسير فى الأدب العربى ، على الرغم من جلال هذا الموضوع وخطره وشدة اتصاله بتطور تدوين التاريخ الإسلامى ، من المغازى والسير ، إلى السيرة النبوية ، فكتبُ الطبقات التى لم تدع صاحب علم أو فن أو صناعة إلا عنيت بالترجمة له ، حتى كان التراث العربى فى هذا الباب أغنى وأوسع من مذخور التراث عند الغربيين .

والحق أن العرب والمسلمين قد عنوا أشد العناية بتراجم رجالهم ، وطبقات علمائهم ، وتوفروا على ذلك الفن ، وافتنوا فى تبويبه وترتيبه على أنحاء سيجدها القارئ فى هذا الكتاب ، حتى لقد بلغت بهم العناية والتحفى فى ذلك أن ألفوا كتباً فى تواريخ البلدان ، يؤرخون فيها لنشوئها وعمرانها وتطورها وفتحها وآثارها ، ثم يفيضون بعد ذلك فى التراجم لأهل هذا البلد ، ممن ولدوا فيه أو نشأوا به أو وفدوا عليه ، وكان لنا من ذلك كتابان جليلان هما « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى ، و « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، وهما من أوسع الكتب فى التراجم الإسلامية ، حتى لقد اجتمعت فيهما حضارتا العرب فى العراق وفى الشام ، والتقت فيهما صورة رائعة من المجتمع الإسلامى الذى كان هؤلاء الرجال المترجم لهم يروحون فيه ويغدون ، ينشرون علماً ، ويبعثون حضارة ، ويصطرعون فى الآراء والأفكار ، فتكون من هذا الصراع حياة أمة بأسرها .

ولم تكن الترجمة لرجال البلدان حظ العواصم الإسلامية الكبرى وحدها، مثل بغداد ودمشق وحلب وقرطبة وغرناطة والقاهرة وغيرها، بل توفر كثير من كتاب التراجم على الترجمة لغير الحواضر، فاجتمع من ذلك ما لم يجتمع لحضارة أخرى.

وإذا كان بعض كتاب التراجم قد لجأوا إلى طريقة ذكر الإسناد فى الروايات التاريخية فضخموا بذلك مادة كتبهم وحشدوها بما لا يتصل بسير المترجم لهم، فإنهم من ناحية أخرى قد وكدوا لنا هذه الأخبار بسندها، كما صنع المحدثون فى الحديث، وإن كانوا قد تخلصوا بعد ذلك من عنعنة الأخبار وأسانيدها، وذكروها مجردة، اطمئناناً إلى ما فعله المصنفون الأولون.

وإذا كان من الحق أن نقول إن كتاب التراجم لم يعنوا بالنقد والتحليل والتعليل فى ترجمة الرجال أكثر مما عنوا بسرد أخبارهم، وذكر آثارهم، ونقل بعضهم عن بعض حتى لتكاد تتشابه العبارات فى مصادر الترجمة، فإن من الحق أيضاً أن نقول إن هذه التراجم الكاثرة قد حفظت لنا كثيراً من أخبار المترجم لهم وملابسات حياتهم، مما لا يصعب معه على كاتب التراجم الحديث أن يخرج صورة واضحة للشخصية التى يريد أن يترجم لها. فهذه المادة الغزيرة من المعلومات والأخبار والحوادث الصغيرة والكبيرة، التى حفظتها لنا كتب التراجم والطبقات فى القديم، هى المواد التى يؤلف المصور من مجموعها صورته. وهنا يختلف مصور عن مصور، ويمتاز كاتب من كاتب. فالعبرة فى « تركيب » الصورة - أو الشخصية المترجم لها - من هذه المواد المتفرقة المبعثرة.

ولم يغفل الأدب العربى كتابة « السير » وهى بعينها « التراجم » مطولة « مستقلة »، كما فى « سيرة الرسول » لابن هشام برواية ابن إسحاق، وكما فى سيرة « عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزى، وكما فى «سيرة ابن طولون» للبلوى، وكما فى «سيرة صلاح الدين الأيوبى» لابن شداد. إلا أن السير لم تبلغ فى الأدب العربى ما بلغته التراجم كثرة وتنوعاً.

ولم يقف العصر الحديث وقفة الجمود فى فن له فى الأدب العربى أقدم مكان ، فتأثر كتاب التراجم العربية اليوم بطرائق الغربيين ومذاهبهم فى التحليل ، وتجلية العوامل النفسية والبيئية ، ودراسة عصر المترجم له دراسة يتجلى فيها مدى الاستجابة بين الرجل وظروف زمانه ، ومعارضة الروايات بعضها ببعض حتى يبدو الحق على وجهه ، ورعاية الفنية الأدبية فى العرض، على أن لا يكون ذلك على حساب الحقيقة التاريخية أو الدقة فى الصورة .

وراح جماعة من الأدباء المحدثين يكتبون سير الراحلين من رجالات المسلمين على نهج جديد .

وبين كتب الطبقات والتراجم الأولى، والسير والتراجم فى عصرنا هذا، يمتد تاريخ مشرق حافل طويل، لبضعة عشر قرناً فى هذا الفن الأدبى التاريخى الذى أرجو أن أكون وفقت فى عرضه — على ضيق المجال — بما أعده من أبكار المحاولات ، ليستدرك بها غيرى ما فات ، والله الموفق .

محمد عبد الغنى حسن

الفصل الأول

التراجم ونشأتها

التراجم فى القديم والحديث — التراجم بين العلم والفن — نشأة التراجم فى الأدب العربى والداعى إليها — التراجم الذاتية .

التراجم فى القديم

التراجم هى ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذى يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفاً يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح تبعاً لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة ، وتبعاً لثقافة المترجم — أىِ كاتب الترجمة — ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التى تجمعت لديه عن المترجم له .

وكلما كانت الترجمة — فى قسميها الذاتى والغيرى — أكثر أناقة وعناية بالثوب البلاغى الذى تلف فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ . إلا أن الإسراف فى الصورة الأدبية التى يعرضها المترجم ، والمبالغة فى الفن الأدبى والروائى الذى يضيفه المترجم على الشخصية التى يترجم لها قد يبعده كثيراً عن الحقيقة والواقع الذى يجب أن يهدف إليه ، والذى يجب أن لا يضيع لاعتبار يتعلق بزخرف العبارة أكثر مما يتصل بلب الموضوع . ومما يذكر هنا على سبيل المثال فى التراجم الأوربية تراجم فرود Froude المؤرخ الإنجليزى فى القرن الماضى ، والذى كان صديقاً لكارليل ومترجم حياته . وقد بلغ من إسرافه فى الروائية أن آثاره تعد هامة فى الأدب الإنجليزى ولكنها لا يعتمد عليها من وجهة الحقيقة التاريخية .

ومهما قيل فى الفرق بين الروائى والمترجم – من حيث القدرة على إظهار الرجال على حقيقتهم – ومهما كان من خلاف فى الرأى بين أندريه موروا كاتب التراجم الفرنسى المعاصر ، ومستر فورستر الروائى من أهل جيلنا هذا ، فإن فن التراجم يحتاج إلى قدر لا بأس به من الفنية الروائية التى يظهر بها الأشخاص وكأنهم أحياء يتحركون على مسرح الحياة ، ويغدون ويروحون بما يختلج فى نفوسهم من نوازع الإنسان الخيرة والشريرة التى تتم بها صورة الكائن الإنسانى الحى .

والترجمة للأشخاص قديمة قدم الإنسان نفسه ، ولا شك أنها ظهرت مع الكتابة فى الأمم التى عرفت الكتابة واستخدمتها فى مسائل حياتها ، أو فى مسائل الترف العقلى الذى يجىء بعد استكمال الضروريات . وكثيراً ما تأتى الترجمة مع التاريخ موازية له فى النشأة ، لأنها فى الحق نوع من التاريخ للرجال على نسق معين . فلقد كان عند الإغريق مؤرخون من طراز يذكره التاريخ بالفخر ، كما كان عندهم كتاب تراجم لا يدعون حيوات العظماء تمر من غير تسجيل لها ، أو تصويرها لأغراض ودوافع من السياسة أو الخلق أو القدوة التى يسعى لها المثاليون. فما كتب بلوتارك كتابه فى « سير عظماء اليونان والرومان » إلا ليكون أمثلة واقعية للحياة التى يجب أن يكون عليها رجل السياسة ورجل الدولة ، كما وضع أرسطو كتابه « الأخلاق » ليكون تمهيداً لا بد منه لكتابه المشهور فى « السياسة » . وما كتب سويتنيوس كتابه فى « حياة الاثنى عشر إمبراطوراً رومانياً » إلا ليكون نموذجاً لحياة هؤلاء الأباطرة السابقين فى تاريخ الرومان .

إلا أن كاتب التراجم قد يكون مدفوعاً بعوامل شخصية أو صلات من القرابة والصهر ، كما فعل تاسيتس المؤرخ الرومانى مع حميه القائد الرومانى أجريكولا فى القرن الأول الميلادى ، فقد اجتمع للمؤرخ عاملا الإعجاب والمصاهرة، فكتب كتابه « حياة أجريكولا » الذى يعد نموذجاً للتراجم والسير فى الأدب القديم .

وظلت أوربا عقيما فى كتابة التراجم منذ عصور الظلام التى خيمت عليها فى القرون الوسطى ، على حين أخذ التاريخ الإسلامى يأخذ مكانه فى الوجود كما أخذ الإسلام – دين العرب وغير العرب – يظهر فى كل أرض استظلت بلواء الإسلام . وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثانى للهجرة ، ثم أخذت على توالى العصور تكثر أنواعها ، ويتضخم عددها ، حتى بلغت من الكثرة فى التراث العربى حداً لم تبلغه فى أى تراث لأمة أخرى معروفة التاريخ فى القديم والحديث .

وليس هذا الكلام يلقى هنا من غير تدليل ولا تمثيل . فقد ظلت إنجلترة مثلا – على رسوخ قدمها فى فن التراجم – معطلة فى هذا الباب عشرات من القرون، إلى أن ظهر صمويل بيبيس ١٦٣٣ – ١٧٠٣م فكتب يومياته ومذكراته التى يعدونها أول خطوة فى كتابة التراجم الذاتية وما تلاها من أنواع التراجم .

وظلت فرنسا كذلك إلى أن ظهر فى القرن السابع عشر أيضاً المؤرخ ريتز فكتب مذكراته سنة ١٦٧٢ .

فحين بدأ فن التراجم يظهر فى إنجلترة وفرنسا بصورة ساذجة كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حداً من الكثرة والتنوع وسعة المجال والافتنان فى موضوعات التراجم لا يقاس به بداية غير منتظمة الخطى فى الآداب الأوربية . فنى القرن الثانى عشر الميلادى كان كتاب « الاعتبار » للفارس العربى المسلم أسامة بن منقذ ٤٨٨ – ٥٨٤ هـ يعد نموذجاً عالمياً للمذكرات والتراجم الذاتية قبل أن يكتب بيبيس الإنجليزى وريتز الفرنسى مذكراتهما بقرون . وفى القرن نفسه كان الشاعر عمارة اليمنى يؤلف كتاب « النكت العصرية » ويترجم فيه لنفسه كما يترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم فى أخريات العصر الفاطمى . وفى القرن الثالث عشر الميلادى كان كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ يسجل كسباً رائعاً فى ميدان التراجم للرجال على اختلاف ألوانهم وثقافاتهم ، فعلى حين كان يزهى مؤرخو الآداب بكتاب بلوتارك الذى جمع فيه

ستًّا وأربعين ترجمة إغريقية ورومانية كان كتاب ابن خلكان يفيض بقرابة ثمانمائة ترجمة جمعت إلى ضبط الوفيات الدقة فى الترجمة ، مع تقديم كل ما يعين من المعلومات على تكوين صورة صحيحة للمترجم له فى غير إسراف ولا تهويل .

وحين ظهرت فى إنجلترة مجموعة التراجم التى تعد على أصابع اليد ، والتى كتبها إيزاك والتون فى القرن السابع عشر كانت كتابة التراجم قد بلغت قمتها فى الآداب العربية قبل ذلك بزمن طويل فى أخريات العصر العباسى وفى العصرين المملوكى والعثمانى ، وظهرت تلك المجموعات الرائعة من كتب التراجم التى تترجم للرجال على اختلاف طبقاتهم ، وتترجم للقرون مائة فمائة ، وتترجم للبلدان وأعلامها ، وتترجم لألوان من الناس تجمعهم صفة واحدة — كتراجم العميان ، أو تراجم المسمين باسم متفق — وتفنن فى ترتيب التراجم بما سنتناوله بالتفصيل فيما يلى .

والحق أن التراجم العربية الإسلامية قد فاقت — من حيث كثرتها وتنوعها وافتنانها فى ترتيب الأعلام المترجمة ، وافتنانها من حيث تبويب موضوعات التراجم والاهتمامُ بها حتى فى كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية ، والترجمةُ لأعيان كل بلد أو كل مدينة فى كتاب واحد ، والترجمةُ لأعلام النساء بجانب أعلام الرجال ، وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية ، والاستشهاد بآثار المترجم لهم فى النثر والشعر ، وضبطُ الأعلام وتحقيق المتشابه منها — قد فاقت فى كل ذلك غيرها من التراجم فى الآداب الأخرى فى القديم والحديث .

فما عرفنا فى تاريخ التراجم العالمية عناية بضبط الأعلام كما فى كتب التراجم العربية ، حتى لقد ألفت فى ذلك كتب كثيرة قائمة بذاتها سنعرض لها فى فصل مقبل . وإذا كان للكتابة العربية وطريقتها فى القديم يد فيما طرأ على الأعلام من وهم أو اشتباه مثل أعلام الشعراء : حباب ، جناب ، خباب ، فإن كتاب التراجم لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه المشكلة الطارئة من رسم الحروف ،

فوضعوا كتباً ومعاجم للتراجم تزيل الوهم ، وتصحح الاسم ، كما صنع الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠هـ فى كتابه « المؤتلف والمختلف » .

غير أن من تمام الحق فى قضية التراجم بين القديم والحديث ، وبين العرب والفرنجة أن نذكر هنا مع الإعجاب ذلك المنهج السوى الذى اصطنعه الأوربيون بأخرة من الزمان فى الترجمة للرجال . وقد أخذ ذلك المنهج يستقيم وتتضح معالمه منذ القرن الثامن عشر ، أو بعبارة أخرى منذ كتب جونسون كتابه « حياة الشعراء » ، ومنذ كتب بوزويل كتابه « حياة الدكتور جونسون » الذى يعده مؤرخو الآداب العالمية مفرداً فى بابه ، كما يعدونه رائعة من روائع التراجم على اختلاف العصور .

وأخذت التراجم والسير منذ القرن الثامن عشر تتأثر بالتطور العالمى الجديد فى ميادين السياسة والتجارة والصناعة . فسوت الديموقراطية بين الناس حين يترجم لصغيرهم وكبيرهم ، واختفت تلك النظرة المقدسة للملوك حين يترجم لهم على أنهم وحدهم هم الناس — أو فوق الناس ، واستحدثت أساليب جديدة فى التراجم تواثم روح العصر وتطوره فى الكتابة والتفكير ، وساعد نمو الحاسة التاريخية على أن تكون الترجمة أو السيرة صورة صادقة للمترجم له تعتمد على أعماله وأقواله التى يكون مجموعها تاريخ حياته ، وظهرت منذ ذلك الحين روائع فى الترجمة ، « كسيرة جليج » لويلنجتون ، « وحياة نلسون » لسوذى ، « وحياة ولترسكوت » للوكهارت ، و « حياة شارلوت برونتى » لمسز جاسكل ، و « الملكة فكتوريا » للمؤرخ ستراتشى الذى يعد أبا التراجم فى العصر الحديث ، والذى جمع فى طريقته بين التفسير التاريخى واللمسة الفنية ، و « بسمارك » و « نابليون » لأميل لدفيج ، و « حياة شيلى » و « بيرون » لأندريه موروا ، وله فى كتابة التراجم محاضرات ألقاها فى جامعة كمبريدج سنة ١٩٢٨ وجمعت فى كتاب لا يستغنى عنه مؤرخ للتراجم والسير فى العصر الحديث .

ولقد أخذت التراجم والسير العربية فى القرن العشرين تنزع عنها أثواب القدم ، وتخرج عن ذلك النهج الرتيب الذى سارت عليه خلال عصور التاريخ الإسلامى ، وتجد فى أساليب الفرنجة فى ذلك الفن متجهاً تسير نحوه وتتابع خطاه ، ولم تعد الترجمة نقا لنصوص قديمة ، وجمعاً لطائفة من المعارف فى غير تبويب ولا تحليل ولا تركيب . والحق أن العبرة ليست بجمع الحقائق عن المترجم له ، ولكن المهم هو عرضها آنق عرض والمواءمة بينها فى فن وحذق . وما أصدق سترتشى المؤرخ الإنجليزى وكاتب التراجم المشهور حين يقول : « من الواضح أن التاريخ ليس علماً ، ومن الواضح كذلك أنه ليس حشداً للحقائق ، ولكنه رواية لها . إن الحقائق التى تتصل بالماضى إذا ضم بعضها إلى بعض بغير فن فإنها لا تعدو أن تكون جمعاً وتصنيفاً ، والتصانيف بغير شك قد تكون ذات نفع ، ولكنها لا تسمى تاريخاً إلا إذا استطعنا أن نسمى مواد الزبدة والبيض والبقدونس طبقاً من العجة . . ! »

ولقد ظهر هذا التحول فى كتابة التراجم فى الأدب العربى الحديث فى الثلث الثانى من هذا القرن ، فظهرت « العبقريات » وطائفة أخرى من التراجم للأستاذ عباس محمود العقاد ، وظهرت سير أبى بكر وعمر بن الخطاب للدكتور محمد حسين هيكل ، وظهر « عثمان » و « على وبنوه » للدكتور طه حسين ، وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامى من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة ، تستمدحقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع ، ولكنها تعرضها فى طبق شهى غير الطبق الذى أشار إليه المؤرخ سترتشى . . ! وتحللها على أضواء من علم النفس ، وتبين فى ذكاء ووعى أثرها فى البيئة التى أخرجتها وأثر البيئة فيها ، وتصور العوامل الفعالة المشتركة بين المترجم له وعصره حتى يتضح أثر كل منهما فى صاحبه .

واستقام المنهج لكتاب التراجم العربية المحدثين حتى وهم يترجمون لحياة الفقهاء

والأئمة من رجال الدين ، فلم تعدْ الترجمة للإمام الشافعي مثلا سرداً لأقوال العلماء والرواة فيه ، أو حشداً لمجموعة من أخباره أو رصفاً لطائفة من أقواله وآرائه ، ولكنها صارت دراسة لبيئة الإمام ، وفقهاً لمذهبه ، وتصويراً لحياته من خلال الأخبار المروية عنه ، وتحليلا للظروف التي أحاطت به مولداً ونشأة وتعليما ، ومدى أثرها في تقويم شخصيته ، وكسب خبراته ، ونشر مذهبه . وظفر فن التراجم العربية في هذا السبيل بطائفة طيبة من تراجم الأئمة للأساتذة الشيخ محمد أبو زهرة [١] ، وعبد الحليم الجندي ، وأمين الخولي .

وقد فطن كتاب التراجم اليوم إلى أنه ليس من الضروري أن تكون حياة المترجم له مأساة حزينة المبدأ أو الختام حتى تكون الترجمة قطعة من الفن الجميل . وعلى الرغم مما قاله أسكار وايلد من أن حياة نابليون بونابارت قد تكون حياة عادية خالية من الجمال لو لم تختم بهذا الختام المحزن في سانت هيلين ، وعلى الرغم من مأساة الحياة المضطربة العاثرة التي عاشها أسكار وايلد فإن المترجم البارع الصناع قد يخلق بفنه الأدبي من الحياة العادية ترجمة رائعة لأناس لم تهزهم مآسي الحياة .

وفي التراجم والسير العربية كانت حياة الشهيد علي بن أبي طالب والشهيد الحسين عليهما السلام مثاراً لتراجم رائعة في الأدب الشيعي قديماً ، وعند طه حسين ، والعقاد ، وعبدالفتاح عبد المقصود في العصر الحديث ، ولكن هؤلاء لم يحتاجوا إلى مآسٍ حزينة ومصارع باكية ليترجموا لغير الشهيدين من أمثال أبي بكر وعمر وخالد بن الوليد .

والحق — مرة أخرى — أن حياة العظماء وحدهم ليست جديرة بأن تثير اهتمام كتاب التراجم والسير أكثر من اهتمامهم بالعاديين من الناس ، وقد غيرت النظرة

---

(١) للشيخ محمد أبو زهرة كتب في تراجم « مالك » « ابن حنبل » « الشافعي » « أبو حنيفة » « ابن تيمية » « ابن حزم » . وللأستاذ عبد الحليم الجندي ترجمة طيبة لأبي حنيفة . وللأستاذ أمين الخولي ترجمة تحليلية للإمام مالك .

الديموقراطية من هذا الرأى ، وأصبح نصيب الرجل المواطن المكافح من الترجمة أوفى من نصيب الملوك والحكام فى العصور الوسطى . ولقد سبق كتاب التراجم المسلمون غيرهم فى هذا الباب ، فترجموا للملوك كما ترجموا للسوقة على حد سواء .. وترجموا للمبصرين كما ترجموا للعميان - كما فعل الصفدى المتوفى ٧٦٤هـ - وترجموا للكرماء كما ترجموا للبخلاء - كما فعل الحافظ أبو بكر الخطيب . .

ومهما صغرت حياة المترجم لهم أو كبرت فإن الترجمة لا بد أن تأخذ حقها من التحقيق العلمى والبحث ومعارضة الأحوال والأقوال بعضها ببعض حتى يتميز الزائف من الصحيح . كما يجب أن تؤخذ أقوال الرواة بعين الاعتبار والوزن لما قد يكون فيها من ميل للمترجم له أو هوى معه أو تعصب عليه ، فإن الناس لا تتفق آراؤهم فى شخص معين ، كما أن تقديراتهم وتأثراتهم قد تختلف لاعتبار أو لآخر .

فى الترجمة للحجاج بن يوسف الثقفى يجب أن نكون على حذر مما يقوله خصومه فى الرأى ، فإن الخصومة قد تحمل على سوء الرأى فى الرجال . لقد حكم بعض المؤرخين على الحجاج بالكفر - وهى تهمة شنيعة - مع أن الرجل كان - على قسوته البالغة فى سفك الدماء - مؤمناً بالله وبرسوله أشد الإيمان . وحكم عليه الخليفة الصالح الزاهد عمر بن عبد العزيز بالنفاق فيما روى عنه أنه قاله :
« لو جاءت كل أمة بمنافقيها وجئنا بالحجاج لفضلناهم ! »

وفى الترجمة للامام أبى حنيفة النعمان يجب أن يتفطن المترجم أو المؤرخ إلى ما شنع به عليه خصومه وحساده لعصبية فيهم ، أو لخلاف بين أصحاب الرأى وأصحاب الحديث ، وقد كان أبو حنيفة من كبار رجال الرأى فى التشريع الإسلامى ، فلم يعجب ذلك أصحاب الحديث فقالوا فيه ما قالوا مما يجب أن يكون منه المترجم على حذر . ولقد ساق الخطيب البغدادى صاحب « تاريخ بغداد » كثيراً من الأقوال التى قيلت فى النيل من أبى حنيفة . ولكن المؤرخين والحفاظ وأصحاب السير لم يسكتوا أمام هذه الأقاويل ، فكشفوا عن قيمتها ومبلغها من

الصحة كما صنع الحافظ ابن عبد البر ، والإمام المؤرخ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ، والسيد مرتضى الزبيدي في « الجواهر المنيفة » .

وما أعجب تضارب الأقوال في الرجل الواحد وفي ناحية معينة منه بالذات ، مما يجب أن لا يخفى على الباحث العلمي المحقق في فن التراجم . فإن كاتب التراجم الإنجليزي « فرود » قد صور لنا — في ترجمته الفاتنة لكارليل — زوجته جين بصورة امرأة غير مفهومة من زوجها ، سيئة الحظ ، رقيقة العشرة ، مرغمة على أن ترضى أنانية زوجها ليظهر مجده أمام المعجبات به من النساء . . . على حين أن كاتبة التراجم « مس درو » قد صورت امرأة كارليل في كتاب لها بصورة الثرثارة ، السليطة ، اللجوج ؛ الكثيرة الخصام ، السطحية التفكير ، وصورت كارليل بصورة الزوج المخلص في الزوجية ، الحلو الطباع !

الحق أن اختلاف الرأي في الناس والأشياء لا يزال في القديم والحديث ، ولا يزال في الشرق والغرب ، ولا يزال حين نترجم للأخيار والأشرار . وما أحوجنا حين نؤرخ للرجال ونكتب سيرهم أن نكون على جانب الاعتدال والحذر والنصفة ، فلا نميل إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

نشأة التراجم فى الأدب العربى

تعد السيرة النبوية أوسع ما فى التراجم الإسلامية ، وأقدمها ظهوراً ، وأولها وأولاها باهتمام المؤرخين والكتاب ، فقد كانت المحور الذى تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره وانتشاره بالغزوات والفتوح . وسنعالج السيرة النبوية فى باب مستقل نظراً لمكانتها ومكانة صاحبها من نفوس العرب والمسلمين ، ونظراً للمكان الذى نزلته فى التاريخ والأدب ، بحثاً فيها وشرحاً لها ولأشعارها ، وتعليقاً عليها ، وتلخيصاً لها أو توسعاً فيها على مدى العصور إلى زماننا هذا .

ونشأت بجانب العناية بكتابة السيرة النبوية عناية كبرى بتدوين الحديث الذى لم يدون فى عصر الرسول خشية أن يختلط شىء منه بالقرآن فلا يعرف أحدهما من صاحبه . وقد كان تدوين الحديث عاملا فعالا فى خدمة كثير من العلوم التى ظهرت بجانبه لتخدم رسالته ، وكان من هذه العلوم المساعدة علم التاريخ ، فاتجهوا إلى الغزوات والفتوح وتواريخ الصحابة والوقائع بين على ومعاوية ، يسجلون أخبارها فى رسائل متفرقة كانت هى النواة الأولى لكتابة التاريخ الإسلامى المطول فيما بعد .

وقد بلغ من عنايتهم بالحديث النبوى أنهم اتجهوا إلى الكلام فى رواته ورجاله ، فترجموا لهم تراجم وجيزة لم يكن القصد منها إلا بيان قيمة المحدث ومكانته من الإسناد ، وجرهم ذلك إلى وضع كتب فى نقد الرجال المحدثين ووزنهم بموازين دقيقة تجعلهم جديرين بحمل أمانة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوضعوا كتباً فى « الجرح والتعديل » ، فمن كان فى الميزان عدلا فهو من المعدلين ، ومن كان مجرحاً انتقل التجريح منه إلى أحاديثه المجرحة . وهكذا خدمت هذه الكتب فى رجال الحديث فن التراجم ، ونبهت الأذهان إلى أن توضع تراجم أخرى لطبقات من الرجال تتفق فى لون واحد من العلم أو الفن أو الصناعة ، كطبقات

الصحابة ، وطبقات المفسرين ، وطبقات الشعراء ، وطبقات النحاة وغيرهم . مما سنعرض له بالتفصيل فى فصل مقبل .

ومن أقدم الكتب فى هذا كتاب « تاريخ البخارى » المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، وقد جعله فى ثلاثة كتب : كبير مرتب على الحروف ، وأوسط مرتب على السنين ، وصغير . وهو بالطبع غير كتابه « الصحيح » الذى جمع فيه طائفة من أحاديث الرسول تزيد على سبعة آلاف حديث كما ذكر المؤرخ ابن حجر .

وفى هذا العصر نفسه اشتغل عالم مسلم آخر بجمع طائفة من التراجم الإسلامية فى كتاب أسماه « الطبقات » ، وقد كان ابن سعد صاحب كتاب « الطبقات » المتوفى ٢٣٠هـ مصاحباً وكاتباً للواقدى المؤرخ المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، فاستفاد منه فى كتابة التاريخ ، إلا أنه خالفه فى المنهج ، فالواقدى يؤلف فى « المغازى » وفى « فتوح الشام » وغيرها من الفتوح الإسلامية ، وابن سعد يؤلف فى طبقات الصحابة والتابعين كتاباً ضخماً يعد من أقدم المصادر وأوثقها فى تاريخ الإسلام والمسلمين . إلا أنه يكتب فى السيرة النبوية وفى المغازى جزءين من كتابه ، على حين يجعل بقية الكتاب وقفاً على تراجم البدريين من الصحابة ، وتراجم الأنصار والمهاجرين ممن لم يشهدوا بدراً ، وتراجم أهل مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين والكوفيين والبصريين .

ولم يغفل ابن سعد تراجم النساء الصحابيات فجعل لهن جزءاً من طبقاته . على أن العناية بالناحية الدينية وناحية رواية الحديث ، والصحبة للنبى عليه السلام والتبعية لصحابته لم تمنع قوماً آخرين من المؤرخين وكتاب الطبقات من الاشتغال بتراجم لغير الصحابة ولغير المحدثين ، فقد رأينا محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١هـ ، والذى كان معاصراً للبخارى وابن سعد ، يترجم لطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام فى كتابه المشهور « طبقات الشعراء » ، وقد جمع فيه بين أخبار عن الشعراء وبين مختارات من أشعارهم .

ولقد تأثر مؤلفو هذه الطبقات والتراجم بطريقة المحدثين فى رواية الأحاديث، فهم لا يذكرون الخبر مجرداً ، وإنما يسندونه إلى رواته قائلين : حدثنا فلان عن فلان. كما كان يصنع أصحاب الحديث ، فهم متأثرون بهم فى الإسناد إلى حد كبير. ولقد يزيد الإسناد وتعدد الأسماء فيه على الخبر نفسه. ولو أن أغاب كتب الطبقات هذه جردت من أسانيدها وأسماء رواتها لبلغت أقل من نصف الكتاب الأصلى بكثير . وإليك هذا الخبر من كتاب « طبقات الشعراء » : (أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابن سلام ، حدثنى ابن جعدبة وأبو اليقظان ، عن جويرية بن أسماء قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد ، فاحتفلت قريش فى جنازة كثير ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله) . وإذا كان فى هذا الخبر دليل على كثرة الإسناد من ناحية ، ففيه من ناحية أخرى دليل على اهتمام الناس بالشعراء واحتفالهم بهم أحياء وأمواتاً ! ولعل هذا مما بعث ابن سلام على أن يؤلف كتاباً فى طبقات الشعراء على حين كان معاصروه يهتمون بطبقات الصحابة والمحدثين .

وأخذت كتب التراجم والطبقات بعد ذلك تكثر وتتنوع ويقوم بها المؤلفون بوحى من أنفسهم واستجابة لدواعى العلم ، لا تقربا إلى وال ، ولا تزلفا إلى أمير ، ولا إجابة لرغبة راغب ، أو طلب طالب ، كما حدث فى العصور التالية وخاصة حين كثرت الدويلات والممالك الإسلامية ، فاضطر العلماء والمؤلفون إلى الوقوف بأبواب الأمراء يتلقون إشاراتهم بتدوين مؤلف معين فى موضوع معين. وقد كثر ذلك فى العصرين الأيوبى والمملوكى . على أنا نجد فى العصور المتقدمة من كتاب التراجم والطبقات من استجاب لرغبة الخليفة نفسه ، كما صنع أبو بكر الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩هـ فى كتابه « طبقات النحويين واللغويين » ، فقد ذكر فى مقدمته أن الخليفة الحكم المستنصر بالله الأندلسى أمره بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين فى صدر الإسلام، ثم من تلاهم من

بعد إلى هلم جرا ، إلى زمانه ، وأن يطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم ، وأن يذكر – مع ذلك – موالدهم وأسنانهم ومدد أعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الإمكان في ذلك ، مع ذكر نتف من أخبارهم وفضائلهم ليكون ذلك شكراً لجميل سعيهم ، وحميد مقامهم . كما نجد في العصور المتأخرة مؤرخاً مترجماً كابن تغري بردي المصري المتوفى سنة ٨٨٤هـ . يشير في مقدمة كتابه الضخم في التراجم المسمى « المنهل الصافي » إلى أنه ألف كتابه هذا « غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب به من الأصدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير ولا سلطان » . فهو استجابة ذاتية داخلية من الرجل ليكمل به كتاب « الوافي بالوفيات » لمؤلفه الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . ونرى بعد ذلك في القرن الحادي عشر الهجري مؤرخاً مترجماً كابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ يذكر في مقدمة كتابه المشهور في التراجم « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » أنه جمعه لنفسه تذكرة لمن تذكر ، وعبرة لمن تأمل وتبصر . وكذلك فعل ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ حين جعل كتابه « وفيات الأعيان » تذكرة لنفسه ..

وقد أراد ياقوت الحموي صاحب « معجم الأدباء » ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أن يؤكد لنا في مقدمة معجمه النفيس في تراجم العلماء والأدباء والنحاة والشعراء أنه جمع هذا الكتاب « لفرط الشغف والغرام ، والوجد بما حوى والهيام ، لا لسلطان أجتديه ، ولا لصدر أرتجيه » . فكأنه هنا يعرض من طرف خفي بأبي بكر الزبيدي الذي صرح بإفادته من كتابه ونقل فوائده إلى معجمه . .

ولعل ياقوت الحموي كان يرد ردا غير مباشر على الذين عابوا كتابة تراجم للشعراء والأدباء والنحاة واللغويين بدلا من الترجمة للمفسرين والمحدثين ، ذلك حين ذكر في مقدمة معجمه « أنه أخبار قوم عنهم أخذ علم القرآن المجيد ، والحديث المفيد ، وبصناعتهم تنال الإمارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان

والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » وقد أخذ يدلل على أهمية التراجم للنحاة واللغويين لما فى علم اللغة والنحو من معرفة القرآن الكريم والحديث الشريف على وجههما « فإن العلم إنما هو باللسان ، فإذا كان اللسان معوجاً فمتى يستقيم ما هو به ؟» وقد فطن المؤرخ المترجم ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ إلى ضرورة الاختلاف فى الترجمة لطبقات الرجال لا فرق بين فقيه ومحدث وعالم وأديب فقال : « رأيت المحدثين تختلف مقاصدهم فمنهم من يقتصر على ذكر الابتداء ، ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والخلفاء ، وأهلُ الأثر يؤثرون ذكر العلماء ، والزهاد يحبون أحاديث الصلحاء ، وأرباب الأدب يميلون إلى أهل العربية والشعراء . ومعلوم أن الكل مطلوب ، والمحذوف من ذلك مرغوب ».

التراجم الذاتية

الترجمة الذاتية هى أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه ، فيسجل حوادثه وأخباره ، ويسرد أعماله وآثاره ، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته ، وهى مظنة الإغراق والمغالاة غالباً ، وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها . ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقاً على حياته ، لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض ، ولكنها مجال تحقيق وتثبت ، وبهذا يصح فى المترجم الذاتى مضرب المثل : قطعت جهيزة قول كل خطيب .

وما أصدق الدكتور جونسون — الأديب الإنجليزى المشهور — حين يقول : « إن حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هى أحسن ما يكتب عنه » . ولكن هل يستطيع إنسان أن يكتب عن نفسه ما لا يود أن يراه الناس منه ويعرفوه عنه ؟ وهل يستطيع إنسان أن يبدى نفسه للناس على سجيته وفى مباذله من غير أن يحاول ترميم العيوب التى لا يحب أن يطلع غيره عليها ؟

وهل تستطيع الترجمة الذاتية مثلا أن تسعفنا بما نود استحضاره من ذكريات الطفولة والمراهقة ؟ وإذا كان النسيان غير المقصود يفوت علينا — حين نترجم حياة أنفسنا — ذكريات ماض بعيد ، فإن هناك نسياناً مقصوداً متعمداً حين يمنعنا الخجل والاستحياء من ذكر صغائر فى حياتنا قد لا تشرف الصفحة التى نريدها ناصعة البياض

ولكن هناك من أصحاب التراجم الذاتية الغربيين من لم يتورعوا أن يذكروا نقط ضعفهم ما دام الضعف البشرى مفروضاً فى الإنسان غير القادر على التمام .

ولعل العرب كانوا أحرص الناس على حيواتهم الخاصة حين رغبوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم ، ولعل أصحاب الخطر والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة قد عدلوا عن الترجمة لأنفسهم ما دام غيرهم من الكتاب والمؤرخين قد تولى ذلك عنهم . ولعل من خلق العربى وسمات نفسيته أن لا يتحدث عن نفسه بقوله أنا : أو عن عمله بقوله : عملت .

وعجيب جدا أن يجوز للشاعر فى معرض الفخر أن يقول : أنا ، أو نحن ، ولا يجوز للكاتب أن يجلس ليقص علينا طرفاً من حياته وسيرته .

وعجيب جدا أن يفتن المسلمون فى كتابة التاريخ والسير ، فلم يدعوا لوناً من ألوان التاريخ والتراجم إلا عالجوه على كثرة ، ولكنهم لم يفكروا فى المذكرات واليوميات الشخصية إلا على حال من الندرة ، ولم يفكروا فى التراجم الذاتية إلا على حال من القلة القليلة التى لا تتكافأ مع هذا الفيض الزاخر من التراجم والسير .

أما المذكرات واليوميات فأطرف ما عندنا منها مذكرات الأمير العربى أسامة ابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ﻫ التى أودعها كتابه «الاعتبار» فهى تصور لنا سيرته وأعماله وفروسيته ، كما تصور لنا طائفة من صور المجتمع الإسلامى فى عصر الأيوبيين .

وأما التراجم الذاتية فمن أقدم من نعرف ممن عالجوها الشاعر عمارة اليمنى الذى كان موالياً للفاطميين فى أخريات دولتهم فى القرن السادس الهجرى ، فقد تحدث عن نفسه فى كتابه « النكت العصرية » .

على أن « سيرة المؤيد داعى الدعاة» بقلمه هى أسبق عهداً مما ترجم به الشاعر عمارة اليمنى لنفسه ، وترجع إلى منتصف القرن الخامس ، وتصور لنا حياة داعية من دعاة الفاطميين وأنصار المذهب الإسماعيلى . وقد ظلت هذه السيرة الذاتية مغفلة الإشارة إليها فى كتب التراجم والتاريخ ، ولعل لقيام المذهب الإسماعيلى نفسه على التقية والستر أثراً فى اختفاء هذه الترجمة الحافلة بكثير من الفوائد

التاريخية ، إلى أن أتيح لها أن تظهر من عهد غير بعيد .

على أن ابن سينا الفيلسوف المتوفى سنة ٤٢٨ هـ قد ترجم لنفسه ترجمة اعتمد عليها تلميذه الجوزجانى حين ترجم له. وممن ترجم لنفسه من رجال الأمة العربية الإسلامية العماد الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧هـ فى تصديره لكتابه «البرق الشامى »، والسيوطى المؤرخ المتوفى سنة ٩١١ هـ فى كتابه « حسن المحاضرة » ، والسخاوى المؤرخ المتوفى سنة ٩٠٢ هـ فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ولسان الدين ابن الخطيب مؤرخ الأندلس المتوفى سنة ٧٧٦ هـ فى كتابه « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فى كتابة « التعريف » الذى ذكر فيه رحلاته شرقاً وغرباً ومراسلاته وقصائده وما عاناه فى أسفاره . والمقرى المؤرخ الأندلسى المتوفى سنة ١٠٤١هـ فى الجزء الأول من كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » حيث وصف رحلته من الأندلس إلى المشرق .

ويسوقنا ذكر رحلتى ابن خلدون والمقرى إلى ذكر جماعة من الرحالين العرب ، لم يترجموا لأنفسهم تراجم ذاتية مستقلة ، ولكنهم ذكروا فى خلال أسفارهم وتجوالهم وما لاقوه فى خلالها من الأحداث ما يصح أن ينهض بجزء كبير من الترجمة لحيواتهم ، كما فعل ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ هـ فى رحلتيهما .

ولقد مضت القرون متعاقبة بعد ذلك وليس فى الأدب العربى ترجمة ذاتية فيما نعلم، حتى جاء القرن العشرون من تاريخ المسيح ، فرأينا المرحوم الأستاذ محمد كرد على يترجم لنفسه ترجمة فى بضع عشرة صفحة فى آخر كتابه « خطط الشام» المطبوع فى دمشق سنة ١٩٢٧ م ، وقد كان الرجل فيها صريحاً كعادته، وكما سمعناه فى مصر مرات حين كانت كلمة الحق منه تغضب سامعيه . وقد تحدث عن مزاجه العصبى الدموى، وعن تألمه للظلم ، وكراهته للفوضى ، وانقباض نفسه من غشيان المجالس الغاصة، بل تحدث عن فقر والده ويتمه حين اضطرته

ضرورات الحياة أن يشتغل فى صناعة الخياطة أول أمره .

ولعل الأجزاء الأربعة الضخام من « المذكرات » التى طبعها سنة ١٩٤٨ م تعد أطول وأطرف ما وعاه الأدب العربى من مذكرات فى القديم والحديث . ولقد جمعت من الآراء ما أثار سخط نفر من رجال العروبة ، إلا أن فيها من صدق الرجل وجرأته وحسن نيته وعلو أساوبه وحسن بيانه ما لا يجوز لمؤرخ الأدب الحديث إغفاله .

ولن نختم هذا الباب من الكتاب دون الإشارة إلى كتابين معاصرين فى التراجم الذاتية : أولهما « الأيام » لطه حسين ، وثانيهما « حياتى » لأحمد أمين . وفى الأول من جمال التصوير وحلاوة التعبير ورشاقة الحكاية مثل ما فى الثانى من الصدق والصراحة والبساطة ...

الفصل الثانى

السير ـ السيرة النبوية ـ السيرة الشعرية

السير :

ما الفرق بين الترجمة والسيرة ؟ ليس فى الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على وجه التحديد . إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى فى هذا . فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها ، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة .

وأول ما استعملت لفظة السيرة فى سيرة الرسول التى سنتناولها عما قليل ، وسمى المؤلفون فيها بأصحاب السير ، إلا أن ذلك لم يمنع مؤلفاً فى أواخر القرن الثالث الهجرى هو أحمد بن يوسف بن الداية ـ الكاتب المصرى ـ أن يؤلف كتاباً فى « سيرة أحمد بن طولون » . ولعل هذه هى أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة « السيرة » من سيرة النبى إلى سيرة غيره من الرجال . وفى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وبعد كتاب ابن الداية بزمن وجيز ، ظهر كاتب مؤرخ اسمه عبدالله البلوى فلم تعجبه « سيرة ابن طولون » كما ألفها سلفه أحمد بن يوسف الذى « كان يمر فى شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها ، وأنه كان يخلط أخباره ... وما هكذا أرخ الناس الأخبار ، ولا عليه نظم العلماء الآثار . . . » فكتب « سيرة ابن طولون » على المذهب الذى رآه صالحاً لسير الرجال . وله طريقة فى تحليل الحوادث وتعليلها والتعليق عليها وإبداء شعوره الخاص نحوها ، إلا أنه

كان يروى الأخبار بطريق الإسناد على نحو ما كان يفعل أصحاب الحديث وكتاب الطبقات فى القرنين الثانى والثالث .

وفى القرن الخامس الهجرى شهدت الفتوحات الإسلامية غازياً فى سبيل الله من طراز طال عهد المسلمين به منذ أيام الفاتحين الأولين . ذلك الفاتح هو السلطان محمود الغزنوى الذى نشر راية الإسلام فى الهند وما جاورها ، وقد ألقت الأقدار لكاتب منشئ راسخ القدم والمكانة فى البيان العربى — هو أبو النصر العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ أن يتصل بالأمراء الغزنويين ، وأن يشهد عن كثب جلائل الأعمال والفتوح التى قام بها السلطان محمود الغزنوى ، فألف كتاباً أسماه « اليمينى » نسبة إلى يمين الدولة — وهو لقب السلطان محمود — وبسط فيه ترجمة حياته وترجمة أبيه السلطان سبكتكين ، وأودع فيه من المعارف التاريخية ما لا غنى عنه لمؤرخ يهتم بذلك العصر ، وكتبه مسجوعاً على نحو ما فعل الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » .

وقد لقيت هذه السيرة للسلطان الغزنوى من القبول فى البلاد الإسلامية ما جعل الأدباء يتسابقون إلى شرحها ، كما صنع الشيخ أحمد المنينى الدمشقى المتوفى سنة ١١٧٢ هـ فى كتابه المسمى « الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى »

وليس هذا هو الشرح الوحيد لهذه السيرة ، فقد شرحها جماعة منهم الكرمانى ، والخوارزمى ، وابن محفوظ ، وحميد الدين .

أما القرن السادس الهجرى فقد حظى بطائفة من السير كتبها المؤرخ المترجم ابن الجوزى لجماعة من عظماء الأمة الإسلامية ، فقد كتب سيرة للخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أفاض فيها ، وذكر كثيراً من أخباره وفضائله وأولياته وإدارته المملكة الإسلامية وتدوينه الدواوين ، وجرى فى الأخبار على طريقة الإسناد . ولا تقل سيرته للخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز عن سيرته للخليفة الثانى . وقد قابل ابن الجوزى هاتين السيرتين لعلمين من أعلام الخلفاء المسلمين بسيرته

لإمام من أئمة المسلمين المجمع على فضلهم ومناقبهم وتفقههم فى الدين ، هو الإمام أحمد بن حنبل . فقد أرخ أعماله ومحنته فى فتنة القول بخلق القرآن ، وفقهه وأصحابه ومريديه. وجرى فى ذلك على طريقة الإسناد أيضاً كما صنع فى سيرتيه للعمرين.

أما السيرة التى كتبها الإمام فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ للإمام الشافعى ومناقبه فلعلها مقابل ما صنعه ابن الجوزى مع الإمام ابن حنبل . وهى سير تدل فى مجموعها على روح ذلك القرن واتجاه مؤرخيه نحو التماس المثل الرفيعة فى سياسة الحكم، وفى فقه الدين ، عند عظماء الراحلين من المسلمين .

ولقد اختفت فى القرن السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأموات السالفين وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السلطان ومؤسسى الدولات ، كما ظهرت بجانبها سير العلماء المعاصرين . فنرى ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ يكتب سيرة لصلاح الدين الأيوبى عنوانها « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، ونرى محمد بن أحمد النسوى المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٩ هـ يكتب « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » من ملوك الدولة الخوارزمية ، ونرى ابن عربشاه المتوفى سنة ٨٤٥ هـ يكتب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » ، وهو سيرة لتيمورلنك ملك التتار ، مسجوع العبارة ككتاب « اليمينى » الذى سبقت الإشارة إليه . ونرى ابن الشهيد الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ يكتب « الدر الثمين فى سيرة نور الدين »، ونرى القاضى الأديب محيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ يكتب سيرة السلطان خليل بن قلاوون فى كتابه « الألطاف الخفية ، من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » ونرى غير هؤلاء عشرات من السير أغلبها للملوك والسلاطين كما سلف القول ، وقليل منها فى سير العلماء والصوفية مثل كتابى ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ فى سيرة السيد البدوى والسيد عبد القادر الجيلانى ، وكتاب السخاوى المؤرخ المتوفى سنة ٩٠٢ هـ فى ترجمة شيخه وأستاذه ابن حجر ، وكتابى السيوطى فى مناقب الإمام مالك والإمام أبى حنيفة .

ولسنا هنا الآن بسبيل حصر هذه الكثرة الكاثرة من كتب السير ، ولكنها فى مجموعها لا تخرج عن النهج القديم المطروق من ذكر الأخبار والمناقب مصحوبة بأسنادها ، حتى لتتشبه الكتب المؤلفة فى سيرة واحدة ، لأنها تأخذ جميعاً من معين واحد ومن رواة بعينهم تتفق ألفاظهم وتنقل كما هى ، إلا ما يحدث من تزيد بعض الروايات أو تنقصها على هوى الناقلين .

السيرة النبوية

كانت سيرة النبى عليه السلام — أول ما دونت — باباً من أبواب الحديث النبوى الذى جمعه رجال الحديث ورتبوه على أبواب مستقلة ، فكنت تجد فى الصحاح من حديث رسول الله كتاباً فى « الجهاد والسير » أو كتاباً فى « المغازى» بجانب كتب الفقه الأخرى وأبوابه .

ولقد ظهر بجانب رجال الحديث مؤرخون للسيرة النبوية نصوا عزائمهم على جمع أخبارها ورواية أحداثها . وهؤلاء المؤرخون كانوا بالطبع من رجال الحديث ورواته ، إلا أن اهتمامهم بأمر السيرة النبوية جعل لهم نوعاً من التفرد فى هذا الميدان .

ولم تستأثر بلدة إسلامية واحدة بإخراج مؤرخين لسيرة الرسول ، فقد اشترك فى ذلك العمل طائفة من المدن الإسلامية الكبرى فى أخريات القرن الأول الهجرى والقرن الثانى . فنرى من مؤرخى السيرة فى المدينة أبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢ﻫ ، وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ ﻫ ، وعبد الله بن حزم المتوفى سنة ١٣٥ ﻫ ، وعاصم بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ ﻫ ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ ﻫ ، ومحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٢ﻫ ، والواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ ﻫ ونرى من مؤرخى السيرة المكيين ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ ﻫ ، كما نرى من البصريين معمر بن راشد ، ومحمد بن سعد صاحب

الطبقات ، وابن هشام صاحب كتاب « السيرة النبوية » المتوفى سنة ٢١٨ هـ .
ومن الكوفيين زياداً البكائى المتوفى سنة ١٨٣ هـ . كما نرى اليمن ممثلة فى كتابة
السيرة النبوية وجمعها على يد وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ .وقد انتهت إلينا
سيرة الرسول فى كتاب عبد الملك بن هشام الذى انتهت إليه السيرة التى كتبها ابن
إسحاق ، والتى لا يعرف الآن شيء عنها أكثر من أنها نهاية ما وقف عليه ابن
هشام تلميذ ابن إسحاق من سيرة الرسول . وهى وإن كانت تعرف بسيرة ابن هشام
إلا أن فضل راويها محمد بن إسحاق لا ينكر ، فلولا روايته ومشيخته لابن هشام
ما انتهت إلينا السيرة النبوية بهذا الشكل الذى يعد أقدم مصدر معتمد عليه فى
تاريخ حياة الرسول .

ونلاحظ فى كتاب السيرة النبوية ومؤرخيها الأولين أن أغلبهم كان من أهل
مدينة الرسول ، وقد أتاح لهم قربهم من عاصمة الإسلام — بعد مكة — أن يرووا
الأحداث كما سمعوها من أقرب الناس إليها ، وأن تنقل عنهم هذه الأخبار — على
طريق الإسناد كما فى رواية الحديث — فى الأمصار .

وقد اضطر بعض مؤرخى السيرة أن يسقطوا الأسانيد مراعاة للاختصار من
ناحية ، ووصلا لسلسلة الحوادث من ناحية أخرى كما فعل ابن إسحق والواقدى ،
ولكنهم تعرضوا لنقد الناقدين من رجال الحديث وتجريحهم ، ولم يسلم ابن إسحاق
من هذه الحملات العنيفة ، وإن كان دافع عنه بعض المؤرخين وردوا على
الطعون الموجهة إليه ، كما نرى فى كتاب « عيون الأثر » لابن سيد الناس اليعمرى
وهو من مؤرخى الأندلس ومؤلفى السيرة فى القرن الثامن الهجرى .

والحق أن ابن إسحاق كان — على سعة علمه واتساع روايته — لا يتقيد
بالقيود التى وضعها رجال الحديث ، ومن هنا وجدوا سبيلا فى الطعن عليه ، وقد
كان يجمع بعض أخباره من الكتب المدونة فى ذلك العهد البعيد مع أن رجال
الحديث يشترطون السماع . إلا أنه كان صادقاً غير مطعون عليه فى هذه الناحية

وكأن حرصه على كثرة الجمع قد شغله عن تنخل ما يجمعه وتحقيقه ، وخاصة فيما لا يحسنه من أبواب العلم والأدب — كالشعر مثلا — فقد كان يقبل كل شعر يقال متصلا بحوادث السيرة النبوية ولو كان موضوعاً . ويقول عنه ابن النديم صاحب كتاب « الفهرست » : « إنه كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها فى كتابه فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » .

والحق أن تلميذه ومدون سيرته : ابن هشام ، كان أكثر منه بصراً وحذراً . فأنه كان أميناً فى الرواية عن أستاذه ، إلا أنه يعلق على الأشعار المروية قائلا : « هذا ما صح لى من هذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » أو يعلق على أبيات لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى بأنها « تروى أيضاً لأمية ابن أبى الصلت » .

ولم يكتف ابن هشام مؤرخ السيرة النبوية بهذه النظرة الناقدة إلى الشعر المروى فيها مما فات أستاذه ابن إسحاق أن يحققه ، بل كثيراً ما نراه يقف — بعد رواية أستاذه — فيصحح لفظاً وقع فى عبارة ابن إسحاق ، أو يشرح كلمة غامضة أو يذكر رواية أخرى مخالفة للأصل ، أو يذكر شاهداً على استعمال لغوى . بل أباح لنفسه أن يسقط من أصل السيرة ما لا يراه مناسباً فى مثل هذا الكتاب الجليل ، فيقول مثلا : « تركنا هنا كلاماً لأنه أفحش فيه » .

وتظهر عدالة المؤرخ واستواء الميزان عند ابن هشام فى موقفه من الشعر الهجائى المقذع الذى يحذفه من أصل السيرة . فهو يحذف المفحش من هجاء شعراء المسلمين كما يحذف المفحش من هجاء شعراء المشركين على حد سواء ، لايحابى ، ولا يتعصب ، ولا يميل . لأنه راض نفسه أن يقف موقف المؤرخ الناقد ، لا المؤرخ المتعصب المتحيز .

هذه هى « سيرة الرسول » كما دونها المؤرخ ابن هشام رواية عن شيخه ابن

إسحاق ، الذى انتهى إليه علم المغازى والسير فى منتصف القرن الثانى من الهجرة .

وقد أخذ مؤرخو المسلمين بعد ذلك وعلى تتابع العصور الإسلامية يكتبون فى السيرة النبوية والشمائل المحمدية ، ويجلون من نواحى الرسول ما يجد فيه المسلمون الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، ويفيضون فى التاريخ للسيرة وصاحبها من نواح عدة ، فمنهم من يفيض الحديث فى غزواته ، ومنهم من يطيل القول فى شمائله ، ومنهم من يتحدث عن أولاده وحفدته ، ومنهم من يتخذ من أخلاقه مثلا كاملا للإنسان الكامل ، ومنهم من يجعل من السيرة النبوية محوراً تدور حوله أحداث التاريخ الإسلامى وأعمال رجاله وصانعيه الأولين .

على أن من المؤرخين من أفرد سيرة الرسول بكتاب خاص قائم بذاته، كما صنع القاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى كتابه « الشفا فى تعريف حقوق المصطفى » ، وكما صنع ابن سيد الناس اليعمرى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ فى كتابه « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير » ، وكما صنع المؤرخ مغلطاى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ فى كتابه « الزهر الباسم ، فى سيرة أبى القاسم » ، وكما صنع شهاب الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ فى كتابه « المواهب اللدنية ، فى المنح المحمدية »، وكما صنع نور الدين الحلبى المتوفى سنة ١٠٤٤هـ فى كتابه « إنسان العيون ، فى سيرة الأمين المأمون» وهو المعروف بالسيرة الحلبية، فرقا لها من سيرة ابن هشام ، وكما صنع المرحوم الشيخ محمد الخضرى من أهل زماننا هذا فى كتابه « نور اليقين ، فى سيرة سيد المرسلين » [١] .

ومن المؤرخين من جعل سيرة الرسول قسما من كتابه فى التاريخ العام كما فعل

---

(١) من الإنصاف هنا أن نشير إلى كتابين حديثين فى ترجمة الرسول وحياته سلكا طريق البحث والتحقيق ومعارضة الروايات ، والتعمق فى دراسة الأحداث والمغازى ، وهما « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، « محمد » للمرحوم الأستاذ محمد رضا . وهناك « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين، وهو إحياء للسيرة النبوية على طريقة أدبية حية نابضة ، تصور الأحداث والرجال فى حركة ، مع رشاقة فى التصوير والتعبير .

الطبرى المؤرخ المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فى كتابه « الكامل » ، والذهبى المؤرخ الحافظ الناقد المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فى كتابه الواسع « تاريخ الإسلام » ، وابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فى كتابه الضخم « البداية والنهاية » ، والديار بكرى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ فى كتابه « الخميس ، فى أحوال أنفس نفيس » . فهؤلاء — وغيرهم ممن لسنا بسبيل حصرهم — قد ترجموا للرسول عليه السلام وأرخوا للسيرة النبوية بما يكون كتباً قائمة بذاتها فى السيرة . فابن كثير — مثلا — يخصص أكثر من جزءين من كتابه الضخم فى سيرة الرسول . وابن الأثير يخصص أكثر من جزء كبير من كتابه لسيرة الرسول .

وكثيراً ما تتشابه أخبار السيرة النبوية فى هذه الكتب وتكاد تتفق ألفاظها ورواياتها لأنها تمتح جميعاً من معين واحد . وإذا كانت «سيرة ابن هشام » هى الأصل فإن ذلك لم يمنع أن يلجأ المؤرخون للسيرة إلى مصادر أخرى غير سيرة ابن هشام . وكثيراً ما نرى فى الطبرى أخباراً برواية ابن إسحاق مؤرخ السيرة ، وإن كانت هذه الأخبار لم ترد فى «سيرة ابن هشام » ، لأن هذه قد اختصرت كثيراً من روايات ابن إسحاق وهذبتها كما سلف القول .

وقد ظفرت السيرة النبوية بطائفة من التلخيصات والتذييلات والشروح سنتحدث عنها فى موضع خاص بذلك من هذا الكتاب ، غير أن ذلك لن يعجلنا هنا عن الإشارة إلى ما صنعه أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى المتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ فى كتابه « الروض الأنف » فى تفسير سيرة ابن هشام ، حتى ليعد هذا الكتاب شرحاً وافياً ، وإكمالا لما يذكره ابن هشام فى سيرته التى تعد أقدم أثر فى تاريخ الرسول الكريم .

السيرة الشعرية

لعل الشعر أراد أن يثبت أنه قادر على أن يلج الميادين التى كانت للنثر ، أو لعل الشعراء ــ أو ناظمى الشعر من المؤرخين ــ أرادوا للشعر أن يكون سبيلا متأنقاً لكتابة التاريخ ، فلجأوا إلى تدوين بعض السير عن طريق الكلام المنظوم الذى يقيده الوزن والقافية معاً كما فى القصائد التاريخية ، أو يقيده الوزن فقط مع تنوع القافية ، كما فى الأراجيز التاريخية .

ولقد عرفنا بعض كتاب التراجم الذين تأنقوا فى الكتابة بنثر مسجوع ، كما فعل أبو النصر العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى كتابه « اليمينى » فى سيرة السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى ، وكما فعل الثعالبى فى « يتيمة الدهر » ، وكما فعل ابن خاقان فى كتابه « قلائد العقيان » الذى ترجم فيه لطائفة من أعيان معاصريه فى الأندلس . ولكن يظهر أن المؤرخين الشعراء لم يرضوا بالنثر وسيلة لغرضهم من الترجمة والسير ، فاستخدموا الشعر فى ذلك الباب ، وهى حركة كانت استجابة لحركة الشعر التعليمى الذى بدأ يدخل كل ميدان من ميادين العلوم .

ولعل أقدم تاريخ منظوم هو ما صنعه عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ فى قصيدته التاريخية فى أشعار الخلفاء والملوك ، وفى أرجوزته فى تاريخ الخليفة المعتضد العباسى التى صنعها بإشارة من المعتضد نفسه ، وقد أعجب بها الخليفة وحفظها إحدى جواريه ، فكانت تنشده إياها فى أكثر أوقاته .

والحق أن المعتضد لم يطلب من الشاعر ابن المعتز أكثر من تأليف كتاب فى سيرته وترجمة حياته ، فوجد الشاعر فى الشعر ما يغنيه عن التأليف بالنثر ، وأنجز سيرة الخليفة المعتضد فى أرجوزة طويلة ، ضمت تاريخ هذا الخليفة المصلح الحازم الذى غطى على نفوذ الأتراك فى قصر الخلافة ، وكان له من الإصلاحات الكثيرة ما يذكرها له التاريخ .

ولقد وجد الشاعر الرقيق مطاوعة عجيبة من الشعر فى التعبير عن أغراضه ، وفى الإلمام بنواحى صاحب السيرة فى شعر رقيق لطيف ، كقوله فى وصف قصر الرباب الذى بناه المعتضد سنة ٢٨٧ هـ :

فمن رأى مثل « الرباب» قصرا ... كم حكمة فيه تخال سحرا
والنهر والبستان والبحيرة ... قد جمع الماء إليها طيره
وللبزاة معها وقائع ... فغائصٌ فى جوفها وواقعُ
وبعضها يذبح فى الأكف ... مأسورةً قد رُميت بحتف
وما رأى الراءون مثل الشجرة ... ذات غصون مورقات مثمره

وكقوله فى قضاء المعتضد على اللصوصية التى كانت منتشرة فى الموصل فى ذلك العهد :

سار إلى الموصل ينوى أمرا ... فملأ البر معاً والبحرا
وكبس اللصوص والأفرادا ... وأمن البلادَ والعبادا
وجزعت من خوفه الفراعنة[1] ... وأصبحتْ سفن التجار آمنة
وكان فى دجلة ألفُ ماخر ... لم يعنها إلا جناح طائر
يجبون كل مقبل ومدْبر ... مجاهرين بالفعال المنكر
كم تاجر راوغهمْ بزوْرَقه ... فأغمدوا سيوفهم فى مفرقه
وفرت الأعراب فى البلاد ... وأهلكوا إهلاك قوم عاد
فأودعوا السجن مكتفينا ... مغلغلين ومصفدينا

فهذه الصورة الشعرية للصوص وأعمالهم وكبس رجال الخليفة لهم قد أحسن الشعر عنها التعبير بما لا يقل أداء وضبطاً للمعنى عن النثر .

---

(١) يدل هذا الاستعمال فى التجبر والجبروت على قدم دلالة لفظ « فرعون » على المستبد المتجبر

وأخذت بعد ابن المعتز تتوالى السير الشعرية سواء أكانت ترجمة للرسول عليه السلام أم ترجمة للملوك والحكام وأعيان الرجال .

أما السيرة الشعرية للرسول فقد تصدى للقيام بها جماعة من المؤرخين الشعراء، كما فعل شمس الدين الباعونى المتوفى سنة ٨٧١ هـ فى كتابه المسمى « منحة اللبيب ، فى سيرة الحبيب » ، وكما فعل زين الدين بن الشحنة المؤرخ المتوفى سنة ٨١٥ هـ فى أرجوزته فى سيرة الرسول ، وتبلغ عدة أبياتها تسعة وتسعين بيتاً ، وكما فعل ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ فى كتابه « بشرى اللبيب ، فى ذكرى الحبيب » ، وإن كانت فى الحق أقرب إلى شعر المديح منها إلى شعر السير .

أما السير الشعرية لغير النبى عليه السلام فقد كتب فيها جماعة من مؤرخى العصر المملوكى ، وأشهرهم الأديب الكاتب المؤرخ محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ فى كتابه « سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس » ؛ وبهاء الدين الباعونى المتوفى سنة ٩١٠هـ فى كتابه « القول السديد الأظرف ، فى سيرة السعيد الملك الأشرف » وهى أرجوزة تقع فى أكثر من خمسمائة بيت ، وتشتمل على سيرة السلطان برسباى إلى قايتباى ؛ وبدر الدين العينى المؤرخ وصاحب كتاب « عقد الجمان » المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، وقد نظم سيرة الملك المؤيد السلطان المملوكى فى كتاب يعرف « بالجوهرة » ، ويظهر أنه لم يقتنع بهذه السيرة الشعرية ، فألف كتاباً آخر منثوراً فى سيرة ذلك السلطان أسماه « السيف المهند ، فى سيرة المؤيد»

وإذا كنا نعجب من طريقة بعض الكتاب المتصنعين فى عصور متأخرة من حل الأبيات الشعرية وتحويلها إلى منثور ، فماذا يبلغ بنا العجب إذا عرفنا أن سيرة المؤرخ ابن عبد الظاهر — التى سبقت الإشارة إليها والتى نظمها مؤلفها بالشعر — قد أحالها إلى لغة نثرية شافع العسقلانى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ فى كتاب أسماه : « المناقب السرية ، المنتزعة من السيرة الظاهرية » .

والحق أن هذه السير لم تكن فى مجموعها غير نوع من التقرب ، والزلفى ، والمدائح للمؤرخة سيرتهم ، ولم يكن فيها من مناهج الترجمة وكتابة السير ما يضيف إلى العلم أو التاريخ حقيقة جديدة ، أو يجلو لبساً ، أو يحقق مسألة . غير أن الطرق اختلفت بهم فيمن يتقربون إليه ويلتمسون الزلفى عنده ، أو الشفاعة لديه . فأصحاب سيرة الرسول الشعرية يكتبونها على طريق التقرب إلى رسول الله ، والتيمن بسيرته ، والاصطناع لديه ؛ وأصحاب سير الملوك والحكام يبتغون بها الجاه ، ويلتمسون بها الزلفى ، ويتوقعون منها عرَض الدنيا . ولكل وجهة هو موليها . . .

الفصل الثالث

أنواع كتب التراجم

التراجم العامة الجامعة — التراجم حسب العصور — التراجم لسنة سنة — التراجم فى كتب التاريخ العام — كتب الطبقات — : « طبقات الصحابة ، والفقهاء والقراء ، والحفاظ ، والمحدثين ، والنحاة ، والشعراء ، والصوفية ، والقضاة ، والأطباء ، والفلاسفة » — تواريخ البلدان وتراجم رجالها .

التراجم العامة الجامعة

نقصد بالتراجم العامة تلك الكتب التى تجمع طائفة من التراجم لطائفة من الرجال يختلفون صناعة وطبقة وعصراً ومكاناً ، ولكنهم يتحدون فى صفة واحدة تجمعهم وهى صفة الجدارة والاستحقاق بأن يترجم لهم . وتدون سيرهم . وفى هذا النوع من كتب التراجم يجتمع الفقيه والمحدث والشاعر والأديب والحكيم والقاضى وغيرهم بين دفتى كتاب واحد على الرغم من الفروق الكثيرة بين مهنهم ورسالتهم فى الحياة . كما يجتمع رجل من رجال القرن الأول بجانب رجل من رجال القرن الثانى أو الخامس أو ما بعدهما . كما يجتمع المكى والمدنى والشامى والعراقى والمصرى والخراسانى والأندلسى ، بغض النظر عن اختلاف أوطانهم .

ويعد هذا النوع من كتب التراجم معجماً للرجال البارزين فى كل علم وفن فى مجموعة من العصور ، يرتبون بحسب سنى وفياتهم ، أو بحسب أسمائهم كما سنوضحه فى موضع آخر .

وفى الأدب العربى طائفة من هذا النوع من كتب التراجم لا مندوحة من الإشارة إلى ثلاثة منها تعد من أمهات الكتب فى هذا الموضوع .

وأول هذه الكتب كتاب « نزهة الألباء ، فى طبقات الأدباء » لكمال الدين الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ . وأغلب الظن أنه أول كتاب فى التراجم العامة بعد أن كانت كتب التراجم تكتب فى نوع خاص من الرجال ، فللمحدثين طبقاتهم ، وللشعراء طبقاتهم ، وللنحاة واللغويين طبقاتهم ، وللقضاة طبقاتهم كما سيجىء .

وعلى الرغم من صغر حجم كتاب « نزهة الألباء » ووجازة الترجمة للأعلام المترجم لهم فإنه جزيل النفع ، لأنه جمع فيه كثيراً من تراجم المتقدمين والمتأخرين إلى عصره ، وقد رتبت فيه التراجم حسب سنى الوفاة لا حسب ترتيب الأعلام وفق حروف الهجاء . وقد غلبت نزعة الأنبارى فى اللغة والنحو والأدب فظهر ذلك فى إكثاره من تراجم اللغويين والنحاة والأدباء ، وقل أن تجد فيه ترجمة لغير هؤلاء إلا إذا كان لهم هنالك ماتة إلى اللغة والأدب .

أما ثانى الكتب فى التراجم العامة فهو كتاب « معجم الأدباء » أو « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » الذى ألفه ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . وقد توسع الرجل فى طبقات المترجم لهم وفى القدر الذى ترجم به لكل منهم فجمع فيه ما وقع له من أخبار النحويين ، واللغويين ، والنسابين ، والقراء ، والإخباريين والمؤرخين ، والوراقين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف فى الأدب تصنيفاً ، أو جمع فيه تأليفاً .

ومن هذا يتضح أنه لم يترك مشتغلا بالعلم والأدب والكتابة والوراقة والخط إلا ترجم له ، ونظمه فى سلك معجمه الضخم . ولعل اهتمامه بتراجم الوراقين يرجع إلى حنينه لقديم حرفته ، فقد كان الرجل فى أول أمره يشتغل بنسخ الكتب بالأجر

وجعل بيع الكتب تجارته ، وحصلت له من ذلك فوائد كثيرة ظهرت فى كتابيه العظيمين : « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » الذى نتحدث الآن عنه .
وكان فى نية ياقوت أن يأخذ نفسه بالمنهج الذى رسمه فى مقدمته ، وهو الإيجاز فى التراجم ، ولكنه لم يجد بدًّا من الإفاضة والتطويل فى بعض الأعلام إلى حد يجعل من تراجمهم كتباً مستقلة بذاتها ، كما فى ترجمته لإبراهيم بن العباس الصولى فى أكثر من سبعين صفحة ، وترجمته لابن هلال الصابى فى قرابة ذلك القدر ، وترجمته لأبى العلاء المعرى فى أكثر من مائة وعشر صفحات ، وترجمته لأسامة ابن منقذ فى قرابة ستين صفحة .

ومن ناحية أخرى نراه يوجز فى بعض التراجم إيجازاً لا يكاد يشفى غلة ، ولا يسد حاجة ، ولا يجيب مسألة . كترجمته للخلال الأديب فى أربعة أسطر ، وترجمته لابن رضوان النحوى فى سطر واحد وأقل من نصف السطر !

ولقد حمل هذا الاختلال فى الميزان بعض الأدباء على أن يستظهروا من ذلك أن هذه التراجم الوجيزة ليست من صلب الكتاب ولكنها مدسوسة عليه ، لأن مخطوطات معجم الأدباء لم تصل إلينا كاملة . وقد نادى بهذا الرأى [1] الأستاذ محمد كرد على ، ولكن قد يقال فى الرد عليه أن هذا الإيجاز المخل لم يكن فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب كما قال الأستاذ ، ولكنه يبدو فى الفصول الأولى من الكتاب ، وهى الفصول التى لا يتطرق الشك فى أن الاقتضاب المخزى قد أدركها . كما قد يقال أيضاً أن ياقوتاً كتب كتابه الضخم على فترات متباعدة ، وفى سنوات كثيرة فأنساه بعد الفترات وطول الزمن ما قد ألزم به نفسه فى مقدمة معجمه .

وكانت فى ياقوت طبيعة المؤرخ المحقق حين يترجم للرجال ، فهو يتثبت ، ويعارض رواية برواية ويرجح بين الاثنتين ، ويسأل المترجم لهم عن تواريخ

---

(١) كنوز الأجداد : محمد كرد على ص ٣٢٤ .

ميلادهم ، ويستخبر غيرهم عن تواريخ وفياتهم ، كما فعل فى ترجمته لأحمد الفرغانى حين يقول : (وكانت وفاته – كما أخبرنى المصريون بها – فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، عند كونى بها) . وسنعرض لشىء من ذلك عند الحديث عن تحقيق الوفيات والمواليد .

وكان ياقوت فى منهجه فى التراجم لمعاصريه – ولمن سبقوه أيضاً – مثال المؤرخ العفيف الذى يمر مر الكرام على ضعف الناس ومباذلهم وخواص شئونهم كما يوصى « تروبولد » . وما عرف عنه أنه وقع على عيب لرجل أو حاول إظهاره ، فإذا ما اضطر إلى ذلك ذكره بصيغة البناء للمجهول ، كما صنع فى ترجمته لمعاصره الشاعر ابن عنين ، فقد قال عنه : « ويقال إنه يخل بالصلاة ، ويصلُ ابنة العنقود ، ورماه أبو الفتح بن الحاجب بالزندقة ، والله أعلم بصحة ذلك » . كما كان مثال المقدر لمعاصريه الذاكر فضلهم فى إشادة بذكرهم ، وبعد عن تنقصهم . فيقول عن معاصره نجم الدين العقيلى إنه « أحد شعراء العصر المجيدين ، وأدبائه المبرزين » . ولا يذكر معاصراً إلا قرنه بوصفه أنه من أفاضل العصر ، أو أحد أفراد العصر الأعلام ، أو غير ذلك مما لا نجده مثلا فيما وقع بين المؤرخين السيوطى والسخاوى من رجال القرن التاسع الهجرى .

ويمتاز ياقوت بأنه وضع فى مقدمة كتابه منهجاً لتراجم الرجال من حيث الترجمة لطبقات كثيرة ، ومن حيث العناية بمواليد الرجال ووفياتهم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ومن حيث ترتيبُ الأعلام فى معجمه على طريقة حروف الهجاء مع التزام ذلك فى أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه . فآدم عنده مقدم على إبراهيم ، فإذا تساوى الاسمان الأولان رجع إلى أسماء الآباء فالتزم فيها ترتيب الحروف وهكذا ، ومن حيث الترجمة للرجال « على اختلاف البلدان ، وتفاوت الأزمان ، حسب ما اقتضاه الترتيب ، وحكم بوضعه التبويب » ، ومن حيث

حذفُ الأسانيد التى كثيراً ما كانت تثقل كتب التاريخ والتراجم « إلا ما قل رجاله ، وقرب مناله » .

ولقد نجح ياقوت فى التزام هذا المنهج إلا ما كان من إطالته فى بعض التراجم وإيجازه الشديد فى بعضها كما سبق القول .

أما الكتاب الثالث من كتب التراجم العامة فهو كتاب « وفيات الأعيان » الذى ألفه المؤرخ الشهير قاضى القضاة أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، ولقد كان معاصراً لياقوت أو على الأصح أدرك ثمانية عشر عاماً من حياته ، لأنه ولد سنة ٦٠٨ هـ ، وترجم حياته فى كتابه وختم الترجمة الطويلة بقوله : « وكان الناس عقيب موته يثنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه ، ولم يقدر لى الاجتماع به » .

فالمؤرخان العظيمان لم يتلاقيا ، وإن كانا قد التقيا فى فن واحد هو فن التراجم العامة الجامعة ، ولا يزال كتاباهما من المراجع الهامة الموثقة فى تواريخ الرجال إلى القرن السابع الهجرى . ولقد رسم ابن خلكان منهجه بإيجاز فى مقدمة تاريخه الجليل فهو يرتب التراجم وفق أسماء المترجم لهم ، بدلا من ترتيبها حسب السنين كما هو الشأن فى كتب التاريخ الإسلامى العام ، وقد اختار طريقة الترتيب الهجائى حتى يكون الكتاب أسهل تناولا ، وإن كان هذا يفضى إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر فى العصر ، وإلى إدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين ، فقد يقع شاعر بجانب مفسر ، أو نحوى بجوار طبيب ، ولكنه آثر ذلك لما فيه من المصلحة المقتضية .

وعلى الرغم مما لاحظه ابن خلكان من مراعاة التسهيل فى ترتيب الأعلام تسهيلا للرجوع إليها ، فإنه قد استحدث صعوبة لو كان فطن إليها لكان قد عمل على تلافيها ما دام القصد هو سهولة التناول ، فإنه قد رتب الأعلام على حسب أسماء أصحابها لا على حسب ما اشتهروا به . فأبو تمام فى حرف الحاء لأن

اسمه « حبيب » ، وأبو فراس الحمدانى الشاعر فى حرف الحاء لأن اسمه « الحارث » ، والسيرافى النحوى المشهور فى حرف الحاء لأن اسمه « الحسن » ، وهكذا فى أكثر الأعلام ، وهذا يقتضى من القارىء معرفة تامة بأسماء المترجم لهم ، لا بأسماء شهرتهم ، وإلا لقى عناء فى التهدى إلى الأعلام .

ومن مناهج ابن خلكان فى كتابه أنه لم يقصره على طائفة مخصوصة كالعلماء وحدهم ، أو النحاة وحدهم ، أو الوزراء وحدهم ، « بل كل من له شهرة بين الناس ، ويقع السؤال عنه ذكرته ، وأثبت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب » .

وقد اهتم ابن خلكان بوفيات المترجم لهم فأثبتها ، وذكر موالدهم إن قدر عليها وبالغ فى ضبط الأعلام والأسماء فقيدها أو قيد منها ما لا يؤمن التصحيف فيه ، فيقول مثلا فى ضبط بلدة ميسان بأسفل مدينة البصرة : « وميسان بفتح الميم ، وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة ، وبعد الألف نون » . وليس بعد هذا التقييد الشديد فى الضبط مجال لتحريف أو تصحيف كما وقع فى كثير من كتب المؤرخين السابقين .

وقد أعلن ابن خلكان منهجه فى التحقيق قائلا : « إنى بذلت الجهد فى التقاطه من مظان الصحة ، ولم أتساهل فى نقله ممن لا يوثق به ، بل تحريت فيه حسبما وصلت القدرة إليه » وفحوى هذا الكلام الوجيز الدقيق أن ابن خلكان بذل الجهد فى الرجوع إلى المظان الصحيحة ليأخذ عنها تراجم الرجال وأخبارهم ، وأنه تحاشى المصادر غير الموثوق بها ، ولم يتساهل فى هذه الناحية ، وأنه قصد وجه التحرى فى كتابة التراجم كما أسعفته قدرته ، وساعدته منته .

ولقد ضاع — فيما ضاع من تراث الإسلام — كثير من المراجع التى رجع إليها ابن خلكان واستمد منها مادة تراجمه ، ومن هنا يعد كتابه « وفيات الأعيان »

– فوق قيمته فى التراجم – وعاء لكثير من الكتب التى أضاعها الزمان ، وبعثرتها يد الحدثان .

أما مراجعه الحية المعاصرة له فكانت فى جماعة كثيرة من الرجال الذين لقيهم وأخذ عنهم ، ويعبر عن ذلك بقوله فى مقدمته : « وأخذتُ من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده فى كتاب » . وهذا حق . وإلا فمن كان يستطيع غير ابن خلكان أن يروى لنا تلك النادرة الطريفة عن الشاعرة الشامية تقية بنت أبى الفرج؟ قال ابن خلكان : « وحكى لى الحافظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى ، رحمه الله ، أن تقية المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى ، وكانت القصيدة خمرية ، ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر . فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها ؟ ! فبلغها ذلك ، فنظمت قصيدة أخرى حربية ، ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ، ثم سيرت إليه تقول : علمى بهذا كعلمى بهذا . . . وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه ! »

هذا هو ابن خلكان الذى ذكر المستشرق نيكلسون فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أنه أول مسلم ألف كتاباً فى التراجم القومية العامة ، وقد دفع تعصب نيكلسون لابن خلكان وإعجابه به أن يقول هذا ناسياً ياقوت الرومى من قبله ، وناسيا الأنبارى صاحب « نزهة الألباء » من قبلُ . والحق أن فضلهما لا يجحد ، وإن كان ابن خلكان أوفى على الغاية حين جمع فى تاريخه أكثر من ثمانمائة ترجمة ، ولولا صنيعه هذا لجهل تاريخ كثير من أعلام المسلمين .

وقد ذهب المستشرق الأستاذ « جب » مذهب نيكلسون ، فذكر فى « دائرة المعارف الإسلامية » أن ابن خلكان ابتدع التأليف فى التراجم الشاملة بنوعها العام . والحق أننا لا ندرى سبباً قوياً يحملهما على هذا الرأى ، فإذا لم تكن تراجم ابن الأنبارى وياقوت الحموى للنحويين ، واللغويين ، والنسابين ، والقراء

والإخباريين ، والمؤرخين ، والوراقين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل ، وأرباب الخطوط ، والمؤلفين والمصنفين — من باب التراجم العامة ، فأين تكون إذن عمومية التراجم ؟

الحق أن ابن خلكان ترجم فى كتابه لهذه الطوائف من الناس ، وزاد عليها « كل من له شهرة بين الناس » كما قال فى مقدمته . فهو لم يبتدع هذا النوع من التراجم العامة ، ولكنه جاء فوجده ممثلا فى الأنبارى وياقوت ، فزاد عليه وتوسع فيه .

وقد لقى ابن خلكان — أو لقى تاريخ ابن خلكان — ما يستحقه من التقدير والوزن عند العرب والعجم ، وعند الشرقيين والغربيين على السواء . فترجم إلى الفارسية فى القرن التاسع الهجرى ، وترجم إلى التركية سنة ١٢٨٠ هـ ، وترجمه المستشرق الفرنسى دى سلان إلى الفرنسية [1] فى القرن الماضى ، وقام جماعة من العلماء على توالى العصور بتذييله ، أو اختصاره ، أو نقده ، كما سنشير إلى ذلك فى فصل تال .

التراجم حسب العصور

إن فكرة كتابة التراجم حسب العصور — أو القرون — قد سبق بها الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ حين ترجم فى كتابه المشهور « يتيمة الدهر » لأعلام الشعراء فى القرن الرابع ، وظلت فكرة التراجم حسب القرون محتجبة فى القرنين الخامس والسادس إلى أن جاء المؤرخ علم الدين البرزالى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ فألف كتابه : « مختصر المائة السابعة » فى تراجم أعيان ذلك القرن ، فكان بذلك أول مؤرخ للتراجم العامة وفق القرون . وفى ذلك القرن نفسه جاء الأدفوى مؤرخ التراجم

(١) ذكر جورجى زيدان فى طبعة سنة ١٩٣١ من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن دى سلان ترجم « وفيات الأعيان » إلى الإنجليزية ، والصواب أنه ترجمه إلى الفرنسية .

المصري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فألف كتابه « البدر السافر ، وتحفة المسافر » فى تراجم أعلام القرن السابع الهجرى . ولا يزال هذان الكتابان مخطوطين فى بعض مكتبات أوربا .

ويتميز القرن الثامن الهجرى بأنه أول قرن وضع فيه مؤلف طويل فى تراجم أعيانه ، فكان بذلك أول كتاب لدينا فى الترجمة للرجال على حسب العصور .

ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة المؤرخ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، ويحمل عنوان كتابه الدلالة على تراجم ذلك القرن : « الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة » . وقد طبع سنة ١٩٢٩ م فى الهند فى أربعة أجزاء كبار .

ولم يهمل ابن حجر فى كتابه الترجمة لأعلام النساء فى القرن الثامن ، وقد كانت المرأة المسلمة دائماً فى حسابه وهو يؤرخ ، فترجم لها محدثة وراوية وعابدة ، وقد امتلأ كتابه بمئات من تراجم النساء ، وهو فى هذا على الضد من المؤرخ ابن خلكان الذى كانت المرأة المسلمة قلة نادرة فى كتابه « وفيات الأعيان » .

ويمتاز كتاب « الدرر الكامنة » بترجمته لملوك التتر وأمراء المغول وسلاطين الأتراك ، مما يجعله مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامى فى القرن الثامن . على أن ابن حجر — وقد ترجم لرجال المغول والتتر — قد فاته أن يترجم لرجال الهند لبعد ديارها عنه ، فقام السيد عبد الحى الحسنى من رجال القرن الثالث عشر الهجرى فألف كتابه « نزهة الخواطر » مترجماً به علماء الهند فى القرن الثامن ، فكان بذلك مكملا لكتاب « الدرر الكامنة » .

ومنذ كتاب ابن حجر فى تراجم المائة الثامنة أخذت تظهر كتب التراجم للقرون الإسلامية التالية ، فظهر كتاب « الضوء اللامع ، فى أعيان القرن التاسع [1] » للسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ، و « الكواكب السائرة ، بأعيان المائة العاشرة » [2] للمؤرخ نجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠٦١ هـ ، و « خلاصة الأثر

---

(١) طبع هذا الكتاب فى مصر .

(٢) طبعت أجزاء من هذا الكتاب فى مطبعة الجامعة الأمريكية ببيروت بتحقيق الأستاذ جبرائيل سليمان جبور .

فى أعيان القرن [١] الحادى عشر » للمؤرخ محمد أمين بن فضل الله المحبى المتوفى سنة ١١١١ هـ ، و « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » لشيخ الإسلام محمد خليل المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ [٢] . وقد ظهر بأخرة من الزمان كتاب صغير الحجم للمرحوم أحمد تيمور باشا المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ بعنوان « تراجم أعيان القرن الثالث عشر ، وأوائل الرابع عشر » ، وفيه أربع وعشرون ترجمة ، ويظهر أن المؤلف كان فى نيته إتمام الكتاب إلا أن المنية عاجلته ، فلم يستوعب تراجم القرن الثالث عشر كله ، وقد طبع ما وجد مخطوطاً من الأصل بعد وفاة صاحبه .

وقد اتجه بعض كتاب التراجم إلى الترجمة لرجال عصرهم المعاصرين لهم أو لشيوخهم ، كما فعل صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ فى كتابه « أعيان العصر ، وأعوان النصر » ، وابن فضل الله العمرى المتوفى ٧٤٨ هـ فى كتابه « ذهبية القصر ، فى أعيان العصر » ، وأبو شامة المتوفى ٦٦٥ هـ فى كتابه « الذيل على الروضتين » الذى ترجم فيه لمن عاصرهم من أعيان القرنين السادس والسابع ، والذهبى المؤرخ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فى « معجم أشياخه » الذى ترجم فيه لقرابة ١٣٠٠ شيخ ، وابن حجر فى كتابه « المجمع المؤسس للمعجم المفهرس » وقد ترجم فيه لأساتذته وشيوخه .

ولسنا الآن بسبيل إحصاء هذه الكتب ، ولكن ما ذكر منها يغنى عن الكثير مما لم تدع حاجة إلى ذكره .

التراجم سنة سنة

لقد كان فى نية ابن خلكان أن يرتب كتابه « وفيات الأعيان » على حسب

---

(١) طبع فى مصر فى أربعة أجزاء .
(٢) طبع فى أربعة أجزاء . ثلاثة منها فى الآستانة ، والرابع فى مطبعة بولاق بمصر .

السنين ، ولكنه عدل عن ذلك إلى الترتيب الهجائى للأسماء ، تسهيلا لتناول الكتاب كما سبق القول . وقد نهض ابن شاكر الكتبى المتوفى ٧٦٤ هـ بما لم ينهض به ابن خلكان، فألف كتابه « عيون التواريخ » فى التراجم مرتباً على حسب السنين وانتهى فيه إلى سنة ٧٦٠ هـ . وقد اتجه بعض مؤرخى المسلمين إلى الترجمة للرجال حسب وفيات كل سنة ، ففى كل سنة يذكر المؤرخ أهم من ماتوا فيها من الرجال فى كل بلد ويترجم لهم تراجم تطول أو تقصر حسب أهميتهم ، كما فعل ابن الجوزى فى كتابه « المنتظم » ، وكما فعل ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » . والحق أن فى هذا النوع من الكتب تراجم هامة تكمل معارفنا عن كثير من الأعلام الذين نريد الوقوف على تاريخ حياتهم . ففى « البداية والنهاية » مثلا نجد فى نهاية الأحداث فى كل سنة باباً لذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان فى كل ميدان من ميادين العلم والأدب والحكم والسياسة وغيرها .

غير أن كتاباً هاماً فى هذا الباب لا يجدر بنا إغفاله ، وهو كتاب « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى المؤرخ المتوفى سنة ١٠٨٩هـ. فهو يذكر السنين من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الألف ، وفى كل سنة يذكر وفيات من ماتوا فيها من أعلام المسلمين فى كل ناحية وفى كل ميدان ، ويترجم لكل رجل ترجمة وجيزة جدا ، وقد لا تزيد الترجمة على ذكر الاسم والنسبة وبعض الأعمال والآثار والتصانيف إن كان المترجم له مؤلفاً ، وبعض الشيوخ والتلاميذ إن كان راوياً، وبعض الأخبار فى إيجاز .

وعلى الرغم من قيمة هذا الكتاب فأنه لا يسعف طالب الترجمة إلا إذا كان عالماً بتاريخ وفاة صاحبها . ومن هنا لم يكن كتاباً فى التراجم أكثر مما هو سجل تاريخى لوفيات الرجال حسب السنين ، لا حسب الأسماء . وبهذا حقق فى الوفيات لألف عام ما عدل ابن خلكان عنه فى وفيات سبعة قرون .

التراجم فى كتب التاريخ العام

حرص بعض المؤرخين المسلمين وهم يؤرخون تاريخاً سياسياً عامًّا للدول الإسلامية المتعاقبة أن لا تفوتهم تراجم الرجال بعد ذكر الحوادث السياسية العامة فى كل سنة ، ولا نجد مثل هذا فى الكتاب الذى ألفه الطبرى عمدة المؤرخين فى القرن الرابع الهجرى ، فإنه اهتم بالأحداث أكثر مما اهتم بوفيات الرجال وتراجمهم. على حين نجد مؤرخاً كابن الجوزى المتوفى سنة ٥٧٩ﻫ يهتم فى كتابه « المنتظم » بوفيات الرجال وتراجمهم سنة بعد سنة حتى لتطغى فيه تراجم الوفيات على الأحداث السياسية العامة التى كانت موضع الاعتبار الأول عند الطبرى مثلا . وعلى الرغم من اهتمام ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ﻫ بتراجم الوفيات فى كتابه « الكامل » فإنها كانت باعتدال كبير ولم تطغ على سير الحوادث التى كان الرجل معنيًّا بإبرازها. ولقد اهتم الذهبى المؤرخ فى كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » بذكر الوفيات سنة سنة ، وذكر طبقاتهم وشيوخهم وأخبارهم فى اختصار ، وكذلك فعل سبط ابن الجوزى المؤرخ المتوفى سنة ٦٥٤ ﻫ فى كتابه « مرآة الزمان » ؛ كما فعل ابن كثير فى « البداية والنهاية » ، وكما صنع ابن تغرى بردى المؤرخ المصرى فى كتابه « النجوم الزاهرة » ، والسيوطى المؤرخ فى كتابه « حسن المحاضرة » ففيه من تراجم الرجال ما لا غنى لمؤرخ ولا أديب عنه .

ولن نغفل فى هذا المقام أن نشير إلى مؤرخ مصر فى القرن الثالث عشر الهجرى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المتوفى سنة ١٨٢٥ م ، فأنه ملأ كتابه المشهور « عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار » بتراجم كثيرة لرجال القرن الثانى عشر الهجرى ، وقد زاد فيها على ما احتواه كتاب « سلك الدرر » للمرادى واستدرك ما فاته من مشاهير الأعلام ، وأشار إلى هذا وهو يترجم للمرادى فى الجزء الثانى من تاريخه المشهور .

وقد يقتضى النسب والمناسبة بين التاريخ والتراجم أن يودع فى كتب التاريخ تراجم الرجال على نحو ما رأينا ، ولكن بعض الأدباء زاد فى ذلك وأدخل التراجم فى كتب الشروح اللغوية والنحوية والأدبية ، كما فعل ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ فى شرحه لرسالة ابن زيدون المسمى « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » فقد ملأ هذا الشرح الأدبى اللغوى بتراجم كثيرة لأعلام المسلمين وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى رسالة ابن زيدون كالمتنبي وأرسطاطاليس وأفلاطون وبشار والجاحظ وعشرات غيرهم ، وكما صنع البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ فى « خزانة الأدب »،وعبد الرحيم العباسى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ فى كتابه « معاهد التنصيص »وهو شرح لشواهد التلخيص فى علوم البلاغة ، وقد عنّى العباسى نفسه فى التفتيش عن التراجم فى كتب الأدب وفى مظانها، وترك من لم يستطع الحصول على تراجمهم بعد طول الدأب ، وكثرة النصب .

الطبقات فى التراجم

طبقات الصحابة

إن كتب الطبقات هى نوع من التراجم يرتب فيه الرجال ويجمعون بحسب العلم الذى تخصصوا فيه وتفرغوا له ، لا بأى اعتبار آخر من اعتبارات الزمان وترتيب الأسماء . وأول من ألف فى طبقات الصحابة الإمام البخارى فى « التاريخ الكبير » ، وابن سعد فى « طبقاته » . وقد سبق أن قلنا إن القصد من كتب طبقات الرجال هو خدمة الحديث النبوى بالحكم على رواته ، ووزنهم بأدق الموازين فى الرواية والإسناد ، وجرحهم أو تعديلهم .

وقد أخذ المصنفون بعد ذلك يؤلفون فى طبقات الصحابة وأخبارهم ومناقبهم إلى أن جاء القرن الخامس الهجرى فكتب ابن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ معجمه التاريخى الكبير للصحابة ورواة الحديث ، وأسماه « الاستيعاب ، فى معرفة الأصحاب » وقد رتب أسماء الصحابة فيه ترتيباً هجائياً على طريقة أهل المغرب فى ترتيب حروف الهجاء ، ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة ، ويظهر فى هذا الكتاب الضخم اتجاه المؤلف إلى الحديث أكثر من اتجاهه التاريخى ، فهو محدث قرطبة بل أكبر محدثيها فى عصره ، ولكن معرفته بطبقات الصحابة المحدثين جعلت من كتابه مرجعاً لمؤرخى رواة الحديث

وفى القرن السابع الهجرى انفرد المؤرخ عز الدين ابن الأثير — صاحب كتاب « الكامل » المشهور فى التاريخ السياسى العام — بمعجمه الكبير فى تراجم الصحابة وقد أربى عدد التراجم فيه على ضعف عددها فى كتاب « الاستيعاب » حيث بلغت سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة . واسم كتاب ابن الأثير : « أسد الغابة ، فى

معرفة الصحابة » . وقد اعتمد ابن الأثير على ما ألف من الكتب قبله فى طبقات الرجال ، وخاصة كتب ابن مندة، وأبى نعيم الأصفهانى ، وابن عبد البر النمرى ، وأبى موسى المدينى .

ولما جاء القرن التاسع الهجرى كانت تراجم الصحابة قد بلغت أوجها فى الكتاب الضخم الذى ألفه المؤرخ ابن حجر العسقلانى بعنوان « الإصابة » ، فى تمييز الصحابة » وقد رتبت الأسماء فيه على حروف المعجم ، وهو جامع لما ذكرناه من الكتب السابقة ، وزاد عليها كثيراً واستدرك ، ودفع كثيراً من الوهم والغلط فيما وقع فى التراجم . وأفرد فى أحد أجزائه قسما خاصاً للصحابيات ، أما الصحابة المعروفون بكناهم فقد جعل لهم جزءاً مستقلا .

طبقات الفقهاء

لقى فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة كثيراً من عناية المؤرخين وكتاب الطبقات حين ترجموا لهم فى طبقات الفقهاء عامة ، أو فى طبقات المذهب الذى يمثلونه . وكان رجال كل مذهب حريصين على أن يؤرخوا لطبقات الرجال فيه منذ اتصال الطبقة الأولى بالإمام الأول للمذهب . ومن أقدم الكتب فى هذا الباب كتاب « طبقات الفقهاء والمحدثين » الذى ألفه الهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وفى القرن الخامس الهجرى ظهر كتاب « طبقات الفقهاء » لأبى إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ويصفه المؤرخ السخاوى بأنه مختصر جدا ، وهو فى طبقات المذاهب الأربعة مضافاً إليها المذهب الظاهرى الذى أنشأه داود الظاهرى الإمام المجتهد الآخذ بظاهر الكتاب والسنة والإعراض عن التأويل والرأى والقياس « توفى سنة ٢٧٠ هـ » .

أما الطبقات الخاصة برجال كل مذهب فكثيرة ، فللشافعية « طبقات الشافعية الكبرى » التى ألفها تاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ ، و « طبقات

الشافعية » لابن قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ هـ . وقد بلغ هذا بتراجم رجال المذهب الشافعي إلى سنة ٨٤٠ هـ . واتبع السبكى فى ترتيب طبقاته طريقة تقسيمهم إلى طبقات بحسب القرون ، وقد جمع رجال كل قرن مرتبين حسب أسمائهم .

وللحنفية كتاب فى «طبقات الحنفية» لعبد القادر بن أبى الوفاء القرشى المتوفى سنة ٧٧٥ هـ ، وهو أول كتاب صنف فى تراجمهم ، وعنوانه « الجواهر المضيّة ، فى طبقات الحنفية » ، وقد طبع فى حيدر آباد بالهند منذ أربعين عاماً ، فى جزءين كبيرين . وفى القرن التاسع ألف المؤرخ ابن دقماق المصرى المتوفى سنة ٨٠٩ هـ كتاب « نظم الجمان ، فى طبقات أصحاب إمامنا النعمان » ، والجزء الأول منه فى مناقب الإمام أبى حنيفة ، وقد ظهرت بعد ذلك كتب فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ ، ولقيتالى زاده المتوفى سنة ٩٧٩ هـ ، والتقى الدين بن عبد القادر المصرى المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ صاحب كتاب « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » ، وقد انتهت إليه تراجم رجال المذهب الحنفى كما انتهت إلى ابن حجر المؤرخ تراجم الصحابة فى القرن التاسع .

وللحنابلة طبقات أبى الحسين بن أبى يعلى الفراء الشهيد سنة ٥٢٦ هـ [١] وقد سطر فيه — كما يقول فى المقدمة — ما انتهى إليه من أخبار شيوخه أصحاب الإمام الأفضل أبى عبد الله أحمد بن حنبل ، وبلغ بالتراجم فيه إلى سنة ٥١٢ هـ ، وقد ذيله ابن رجب الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ، وبلغ بالتراجم فيه إلى سنة ٧٥٠ هـ ، ونشر المعهد الفرنسى بدمشق بعض أجزائه محققاً ومفهرساً بعناية الدكتور سامى الدهان ، والأستاذ هنرى لاوست .

وللمالكية كتاب « المدارك » للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، وبعضهم

---

(١) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٥٢ بتصحيح الشيخ محمد حامد الفقى .

يسمى الكتاب « طبقات المالكية » ، وهو أول كتاب ألف فى تراجم رجال هذا المذهب ، ولعله فقد فيما ضاع من التراث الإسلامى ، وقد وصفه المؤرخ السخاوى بأنه حافل . أما المرجع الذى بين أيدينا الآن فهو كتاب « الديباج المذهب ، فى علماء المذهب » لابن فرحون المالكى المتوفى سنة ٧٩٩ ﻫ ، وهو مرتب على حروف المعجم ، وقد فرغ المؤلف من تأليفه سنة ٧٦١ﻫ . وفى أول الكتاب أبواب فى ترجيح مذهب الإمام مالك ونسبه وصفاته وشهادة أهل العلم والصلاح له بالإمامة ، وتحريه فى الفتيا ، واتباعه السنن وكراهته المحدثات من البدع ، والحديث عن كتابه « الموطأ » وأخباره ومحنته . وبعد ذلك يأخذ المؤلف فى الترجمة لرجال المذهب مرتبة أسماؤهم بحسب حروف الهجاء .

ولن نختم هذا الباب دون الإشارة إلى كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » للإمام محيي الدين بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦ ﻫ فهو يترجم للرجال الذين تقع أسماؤهم فى كتب الشافعية كالمختصر للمزنى ، والمهذب ، والتنبيه ، والوسيط والوجيز ، والروضة وغيرها من الكتب المتداولة فى فقه الإمام الشافعى ، وهى أسماء كثيرة تزيد على ألف ومائتين من الرجال والنساء ، بدأها بترجمة النبى محمد عليه السلام ، ثم الإمام محمد بن إدريس الشافعى إمام المذهب الذى يترجم لرجاله ، ثم المحمدين بعد ذلك ، ثم يأخذ فى الترتيب حسب حروف المعجم من الهمزة إلى الياء ؛ وهو يهتم بأنساب هؤلاء الرجال وشيوخهم وتلاميذهم ووفياتهم والمواضع التى وردت فيها أسماؤهم فى كتب الشافعية التى سبقت الإشارة إليها .

طبقات المفسرين والقراء

حينما اتجه كتاب التراجم إلى الكتابة فى طبقات الرجال فإنهم لم يغفلوا الترجمة للمشتغلين بالعلوم القرآنية تفسيراً وقراءة ، ولكن هذه الحركة لم تقم مع حركة طبقات رجال الحديث والحفاظ ، وإنما جاءت متأخرة عنها ، والسبب فى هذا

واضح ، فإن العناية بتدوين الحديث خشية ضياعه قد دعت إلى العناية برجاله ورواته وذكر أخبارهم حتى تتضح مواقفهم من ناحية الجرح والتعديل والقوة والضعف فى الإسناد . ولما كانت حركة تدوين الحديث سابقة منذ القرن الثانى الهجرى فقد تبع ذلك سبق فى كتاب طبقات المحدثين .

أما المفسرون فقد تأخرت كتابة تراجمهم وطبقاتهم فى كتب مستقلة حتى العصر المملوكى ، وإن كان ذلك لم يمنع من ذكر تراجمهم متفرقة فى طبقات أخرى كطبقات الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية ، فإن هؤلاء المفسرين لكتاب الله لم يخرجوا عن كونهم فقهاء أو من رجال المذاهب الإسلامية .

وأقدم ما نعرفه من « طبقات المفسرين » كتاب بهذا العنوان ألفه الإمام السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ ، ثم جاء بعده تلميذه الداودى المالكى المتوفى سنة ٩٤١هـ ، فألف معجماً أبجدياً فى تراجم المفسرين .

أما القراء – وهم الذين قرءوا القرآن بطرق أداء مختلفة للكلمات – كابن عامر المتوفى سنة ١١٨هـ ، وابن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وعاصم المتوفى سنة ١٢٧هـ وغيرهم فقد وضعت فيهم كتب الطبقات ترجمة لهم ووصفاً لأحوالهم ، وتاريخاً لرجال هذا العلم كما أرخ لغيره من العلوم . ومن أقدم الكتب فى هذا الشأن « طبقات القراء » لأبى عمرو عثمان الدانى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، وكتاب « غاية النهاية ، فى رجال القراءات أولى الرواية والدراية » لشمس الدين الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ، وهو « أجمع الكتب فى هذا النوع » كما يقول صاحب « كشف الظنون » . على أن الإمام الذهبى المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وصاحب « تاريخ الإسلام » قد ألف كتاباً فى طبقات القراء اختصره من تاريخه الكبير . وهناك كتب أخرى فى هذا الباب لم نذكرها لأننا فى غير مقام الإحصاء .

طبقات المحدثين والحفاظ

تكاد تكون الكتب التى ألفت فى تراجم رجال الحديث وطبقاتهم أكثر ما تضمه المكتبة العربية الإسلامية من كتب تراجم الرجال ، وقد يضيق بذكرها مجال كهذا هو لبيان الاتجاهات أكثر مما هو لسرد الأسماء . على أننا لا يجدر بنا إغفال كتاب « الكمال » الذى ألفه أبو محمد عبد الغنى المقدسى الجماعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ وجعله معجماً مطولا لأسماء رجال الحديث الذين وردوا فى كتب الحديث الستة ، ورتبه على حروف الهجاء . ثم جاء أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ فهذبه فى كتاب أسماه «تهذيب الكمال» ، وجاء المؤرخ الذهبي فرتب التهذيب ولخصه وزاد عليه وأسماه «تذهيب تهذيب الكمال» ، ثم جاء ابن حجر العسقلانى المؤرخ المحدث الحافظ « ٨٥٢ هـ » فهذب تهذيب الكمال فى كتاب أسماه « تهذيب تهذيب الكمال ، فى معرفة الرجال » طبع بالهند فى اثنى عشر جزءاً سنة ١٣٢٥ هـ ، فكان آخر ما انتهت إليه طبقات رجال الحديث من التهذيب والإتقان . على أننا لا ننسى معاصراً لابن حجر ألف كتاباً فى « طبقات المحدثين » من زمن الصحابة إلى أوائل القرن التاسع ، وهو سراج الدين عمر بن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ هـ .

وقد أشرنا فى الكلام على طبقات الفقهاء إلى الهيثم بن عدى « ٢٠٧ هـ » الذى ألف كتاباً فى طبقات الفقهاء والمحدثين ، فكان بذلك أقدم من نعرف من المؤلفين فى طبقات رجال الحديث .

أما الحفاظ فهم الرجال الذين امتازوا بحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكتفى فى الحافظ بحفظ المتن نفسه ، بل عليه أن يحفظ سلسلة سند الحديث لا يخرم منه حرفاً ، ولا يسقط راوياً . وفى ذلك من المشقة وإجهاد

الحافظة وتطلب القوة فيها ما ليس فى رواة الأدب والشعر ، وكان لحفاظ الحديث فى ذلك مقدرة عجيبة ، فقد حكوا أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٣١٦ هـ كان يحدث فى دار الوزير على بن عيسى ، وقد نصب له السلطان منبراً يحدث عليه ، فلما خرج مرة إلى سجستان سأله أهلها أن يحدثهم ، فقال : ما معى أصل ؛ فقالوا : ابن داود وأصول ؟ ! فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد قال البغداديون : مضى ابن أبى داود إلى سجستان ولعب بالناس ! ثم فيجوا فيجا بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتبت وجىء بها ، وعرضت على حفاظ بغداد ، فخطأوه فى ستة أحاديث ! لم يكن أخطأ إلا فى ثلاثة منها .

وتبين لنا القصة التالية وجه المشقة فى حفظ الحديث أكثر من حفظ الشعر ، فقد جاء أبو الفضل الهمذانى المتوفى ٣٩٨ هـ نيسابور فأعجب الناس بكثرة حفظه وتعصبوا له ولقبوه ببديع الزمان . وأعجب الهمذانى بنفسه لأنه كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت بين يديه مرة ، وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة . وبلغ به الإعجاب أنه أنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ فى الحديث ، وقال : هل حفظ الحديث مما يذكر ؟ ؟ فسمع به الحاكم النيسابورى ، فوجه إليه بجزء من الحديث ، وأمهله أسبوعاً فى حفظه ، فرد بديع الزمان إليه الجزء بعد الأسبوع قائلا : من يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان ، وجعفر بن فلان ، عن فلان ! أسام مختلفة ، وألفاظ متباينة ! فقال له الحاكم : إذن فاعرف نفسك ! واعلم أن حفظ هذا أضيق مما أنت فيه !

هؤلاء هم حفاظ الحديث ، وهذه هى مقدرتهم فى حفظ الحديث النبوى ، وقد ألفت كتب فى تراجمهم وطبقاتهم ، من أقدمها كتاب « طبقات الحفاظ » للمؤرخ شمس الدين الذهبى « ٧٤٨ هـ »، وقد اقتطعه من كتاب الواسع فى التاريخ وطبقات المشاهير الأعلام . وقد ذيل عليه جماعة من العلماء والمؤرخين ،

منهم الحافظ الحسينى الدمشقى « ٧٦٥ هـ » ؛ والحافظ ابن فهد المكى « ٨٧١ هـ »[١] فى كتابه « لحظ الألحاظ ، بذيل طبقات الحفاظ » ؛ والحافظ السيوطى المؤرخ « ٩١١ هـ » .

طبقات النحاة

لقد كان للنحويين واللغويين كتب الطبقات الخاصة بهم ، وقد شهد القرن الثالث الهجرى أول كتاب ألف فى تراجمهم صنفه أبو العباس المبرد النحوى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، ولكنه اقتصر فيه على رجال مدرسة البصرة التى كانت المدرسة النحوية القوية المقابلة لمدرسة الكوفة ، وفى القرن الرابع ظهر كتابان فى تراجم النحاة : أولهما لأبى سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ الذى ألف كتاب « أخبار النحويين البصريين »[٢] وهو موجز صغير الحجم ، أما الكتاب الثانى فهو « طبقات النحويين واللغويين »[٣] الذى ألفه أبو بكر بن الحسن الزبيدى المتوفى ٣٧٩ سنة هـ ، وترجم فيه لأعلام النحاة واللغويين منذ أيام أبى الأسود الدؤلى حتى بلغ شيخه الرباحى المتوفى سنة ٣٥٨هـ ، وقد استفاد من هذا الأصل فى تراجم النحاة وأهل اللغة كثير ممن كتبوا فى التراجم بعد ذلك كابن الفرضى الأندلسى « ٤٠٣ هـ » ، وياقوت الرومى ، والقفطى المتوفى سنة ٦٤٦هـ ، والسيوطى ، والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وغيرهم .

وفى القرن السابع الهجرى ظهر كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للوزير جمال الدين القفطى ، بدأه بترجمة شيوخ النحو فى عهد أبى الأسود حتى

(١) ذكر فى « كشف الظنون » أنه توفى سنة ٨٩٠ هـ . والصواب ما نقلناه عن « الضوء اللامع » للسخاوى .

(٢) نشره معهد المباحث الشرقية بالجزائر بتهذيب المستشرق ف . كرنكو سنة ١٩٣٦ م

(٣) نشر أخيراً بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

عصر المؤلف ، والتراجم مرتبة فيه على حسب حروف الهجاء ، وقد بلغت قرابة ألف ترجمة لعلماء النحو فى كل عصر وفى كل أرض إسلامية ، حتى أولئك الذين فى جزيرة صقلية وغزنة وما وراء النهر .

وقد اعتمد القفطى على ما كتب قبله من التراجم وعلى رواياته ومسموعاته من الشيوخ والرجال الذين لقيهم فى أسفاره ، وعلى ما دار بينه وبين العلماء من مكاتبات .

على أن مشكلة الأسماء والألقاب والكنى والشهرة قد صادفت القفطى ولم يستطع التغلب عليها ، فقد يكرر الترجمة للشخص مرتين ، مرة باسمه ومرة بكنيته أو بشهرته ، ولكن ذلك وقع فى الكتاب على قلة .

ولما كان القفطى حريصاً على الترجمة لمن كان له أدنى مشاركة فى النحو أو اللغة فقد حفل كتابه الضخم بترجمة كثيرين من الأدباء والشعراء والكتاب والفقهاء والمحدثين وغيرهم ممن أسهموا فى النحو ولو بأدنى نصيب ، ومن هنا كان « إنباه الرواة » كتاباً فى تراجم الأدباء والعلماء عامة [١] .

وقد انتهت الكتابة فى تراجم النحاة إلى الإمام المؤرخ السيوطى « ٩١١ هـ » فى كتابه « بغية الوعاة ، فى طبقات اللغويين والنحاة » ، وقد ترجم للنحاة من عهد أبى الأسود إلى عصره ، فكان نهاية المطاف فى تراجم النحويين ، ورتب التراجم على حروف المعجم ، ولكنه بدأ بذكر من اسمه محمد تيمناً بالاسم النبوى الكريم ، ثم تلا ذلك بأسماء الأحمدين ، وبعد ذلك اتبع ترتيب حروف الهجاء .

وقد يكون من النصفة للرجال أن نشير إلى الكتاب الضخم الذى ألفه تاج الدين ابن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وأسماه « الجمع المثناة ، فى أخبار اللغويين

---

(١) بذل الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فى تحقيق هذا الكتاب الثمين جهداً كبيراً جديراً بالثناء عليه ، وقد توج الجهد بذكر مصادر الترجمة المتنوعة الكثيرة وأجزائها وأرقام صفحاتها لكل نحوى أو أديب مترجم له .

والنحاة » ، وقد أشار إليه السخاوى ، وذكر أنه وقف على عدة أجزاء منه بخط المؤلف ، وبلغت تراجم « المحمدين » فيه وحدهم مجلداً كبيراً . ويقول عنه حاجى خليفة صاحب « كشف الظنون » إنه « كتاب كبير فى نحو عشر مجلدات ، لكنه لم ينتشر ، وبقى فى المسودة فتفرقت » ، وقد يكون هذا هو الملخص لكتاب « إنباه الرواة »، وتوجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .

طبقات الشعراء

لقد سبق ابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ هـ كتاب الطبقات والتراجم فى كتابه الذى ألفه فى « طبقات فحول الشعراء » ، والحق أنه من أول الكتب فى هذا الفن ، وقد أخذ المؤلفون بعد ذلك يصنفون فى تراجم الرجال على حسب طبقاتهم وتصنيف علومهم ، ولعل كتاب الجمحى كان ردا أو تصحيحاً لوضع المؤرخ محمد بن إسحاق وموقفه من الشعر العربى ، فقد اتهم هذا الراوية المؤرخ الكبير بأنه ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه ، على علمه بالسير ، وقد قبل الناس منه هذه الأشعار المضعفة ، وكان هو يعتذر من ذلك بقوله: لا علم لى بالشعر ؛ وقد لامه ابن سلام قائلا : أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ؟

لهذا حرص ابن سلام الجمحى على تأليف كتابه فى طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، حتى لا يكون الجهل بتاريخهم ومنازلهم فى الشعر أدعى إلى الجهل بثروة تعد من أصول الأدب العربى . وقد حمل الشك والريبة فى الشعر المروى ابنَ سلام على أن يعرف طبقات الشعراء وأخبارهم ، كما حمل الحرص فى تدوين الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف الكتب فى الرجال والرواة وأصحاب السند وجرحهم وتعديلهم .

ولم يكن ابن سلام أديباً أكثر مما كان مؤرخاً وراوياً للشعر ، إلا أن ناحية

الأدب فى تراجم الشعراء تظهر لنا بوضوح عند الأديب المؤرخ ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه « الشعر والشعراء [١] » الذى يحتوى « على تراجم المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله » . ويدلنا هذا النص من مقدمة الرجل على أن الهمة من تراجم الشعراء كانت منصرفة إلى خدمة اللغة والنحو والقرآن الكريم .

وفى القرن الرابع الهجرى اتجه الإمام أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ إلى الترجمة للشعراء بحسب جماعات الأسماء ، فهناك مثلا جماعات الشعراء المسمين باسم عمرو ، وهناك المسمون باسم عمارة ، وهناك المسمون باسم موسى ، وهكذا ، وهو ترتيب على حروف المعجم إلا أنه جمع الأسماء المتشابهة فى باب واحد . والحق أن فى هذا الكتاب من التراجم ما لا نجده فى مصدر آخر ، أو ما نجد مشقة كبيرة فى الحصول عليه .

وفى ذلك القرن بالذات نجد شعراء القرن الرابع فى جميع أقطار الإسلام يترجم لهم وتجمع أخبارهم وأشعارهم فى كتاب ألفه الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وقد أسمى كتابه « يتيمة الدهر » . والحق أن هذا الكتاب صورة صادقة حية لتطور الشعر العربى فى القرن الرابع ، وللأبواب الكثيرة التى طرقها ، وللشعراء الذين كانوا فى ذلك العصر يملأون الدنيا مدحاً وهجاء وغناء ووصفاً ومعاتبات تصور لنا روح المرح والدعابة . ولم يرتب الثعالبى كتابه حسب الأسماء ، ولكنه رتبه على حسب الأقاليم الإسلامية العربية ، فهناك قسم لشعراء آل حمدان والشام ومصر والمغرب ، وهناك قسم لشعراء العراق ، وثالث لشعراء فارس وجرجان وأصفهان وطبرستان ، ورابع لشعراء خراسان وما وراء النهر . وتمتاز « اليتيمة » بأنها حفظت لنا نماذج كثيرة فاتنة من الشعر العربى فى القرن الرابع ، ولم يكن مجالها محصوراً ضيقاً

---

(١) نشر هذا الكتاب محققاً مشروحاً مفهرساً بعناية الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر .

فى العراق والشام ومصر ، بل ذهب إلى أبعد الحدود وما وراء التخوم . فهو يصور لنا مثلا حالة الأدب والشعر فى الدولة الحمدانية ودولة بنى بويه ، والدولة السامانية ، والدولة الغزنوية مما قد كان محتملا أن يكون مظنة الضياع، لو لم يحفظه لنا الثعالبى .

وقد يقال إن الثعالبى قد تأنق فى صوغ عبارات الكتاب وأكثر السجع فى تراجمه مما قد يكون على حساب المعنى والدقة فى الترجمة ، وعذر الرجل أنه كان صدى لوحى عصره ، وما ظنك بكاتب يعاصر الخوارزمى والصابى والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم من أئمة السجع فى النثر العربى ؟

وقد يقال أيضاً إن الثعالبى لم يهتم بمواليد الشعراء ووفياتهم وأهمل تلك الناحية الهامة فى الترجمة، إلا أن الرجل كان منشئاً أكثر مما كان مؤرخاً ومترجماً ، فغلبت عليه صفته . ولكن ذلك لا ينقص من قدر هذا الكتاب الجليل .

ومن كتب التراجم للشعراء كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو لم يوضع فى الأصل ليكون كتاباً فى الترجمة للشعراء ، وإنما وضع للأصوات التى كان الرشيد أمر إبراهيم الموصلى مغنيه وغيره أن يختاروها له . وقد توسع أبو الفرج فى الكتاب فاستطرد كثيراً فى ذكر الشعراء أصحاب الأبيات التى تغنى ،وترجم لهم من عهد الجاهلية إلى عصره، وروى أكثر قصائدهم ، وألم بكثير من أخبارهم ، فكان كتابه بذلك موسوعة كبرى لا للشعر وحده ، ولكن للأدب العربى على جهة العموم .

وقد أتم الباخرزي « ٤٦٧ هـ » صاحب « دمية القصر » ، والوراق الحطيرى صاحب «زينة الدهر»المتوفى سنة٥٦٨ ،والعماد الأصبهانى المتوفى سنة٥٩٧هـصاحب « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » كتاب اليتيمة للثعالبى ،وبلغوا بتراجم الشعراء فيه إلى القرن السادس الهجرى . وفى القرن السابع كتب ملك من ملوك بنى

أيوب كتاباً فى « طبقات الشعراء » دل على اهتمام أبى المعالى الملك المنصور بن أيوب بأخبار الشعراء .

وقد رأينا النزعة الإقليمية تظهر فى تراجم الشعراء عند ما ألف ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ كتابه «القدح المعلى، فى التاريخ المحلى» الذى ترجم فيه لشعراء الأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى . والحق أن الثعالبى صاحب « اليتيمة » كان أوسع نظرة إلى هذا الموضوع فترجم لشعراء المسلمين فى دانى الأرض وبعيدها كما سلف القول .

ولقد عادت النزعة الإسلامية العامة إلى الظهور حينما ألف ابن معصوم الحسينى المتوفى سنة ١١٠٤ هـ كتابه « سلافة العصر ، فى محاسن أعيان العصر » ، وقد ترجم فيه لشعراء القرن الحادى عشر الهجرى ، فى الشام ومصر وأهل الحرمين واليمن والعراق والبحرين والعجم والمغرب .

طبقات الصوفية

لقيت طبقات الصوفية اهتماماً كثيراً من مؤرخى المسلمين وكتاب التراجم فى هذا الباب ، وقد عد السخاوى المؤرخ ، وحاجى خليفة طائفة كثيرة من هذه الكتب التى يرجع أقدم مؤلفاتها إلى القرن الثالث الهجرى ، حين وضع محمد بن على الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ كتابه .

وحفل القرن الرابع ببضعة من كتب تراجم رجال التصوف والنسك ، أهمها « طبقات النساك » لابن سعيد الأعرابى المتوفى سنة ٣٤١ هـ ، و « تاريخ الصوفية » لأبى العباس أحمد بن محمد بن زكريا النسوى المتوفى سنة ٣٩٦ هـ ، و « أخبار الصوفية والزهاد » لمحمد بن داود النيسابورى المتوفى سنة ٣٤٢ هـ .

أما القرن الخامس الهجرى فكان مظهراً لنشاط اثنين من كبار المشتغلين بتاريخ التصوف والمتصوفة ، وهما أبو عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ،

وأبو نعيم الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وقد ترك لنا السلمى كتابه « طبقات الصوفية » [١] وقسمهم إلى خمس طبقات افتتح الأولى بالفضيل بن عياض ، والثانية بالجنيد ، والثالثة بأبى محمد الجريري ، والرابعة بأبى بكر الشبلى ، والخامسة بأبى سعيد بن الأعرابى ، ولم يراع فى الأسماء ترتيباً معجمياً ولكنه راعى الطبقات وحدها ، فيذكر منصور بن عمار قبل أحمد بن عاصم الأنطاكى مثلا . وليس له منهج موحد فى ذكر الموالد والوفيات فحيناً يذكرها ، وكثيراً ما يهملها .

أما أبو نعيم فترك لنا « حلية الأولياء » الذى وصفه السخاوى المؤرخ بأنه « كتاب حافل ، وهو عمدة كل من جاء بعده » وزاد السخاوى على ذلك قوله : « والتقط ابن الجوزى منه ما أودعه من زيادات فى كتابه : « صفة الصفوة » . على أننا لن نغفل فى القرن الخامس — أيضاً — الصوفى الكبير أبا القاسم عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ الذى ترجم فى كتابه المشهور : « الرسالة القشيرية » لطائفة من رجال التصوف ، وهو تلميذ السلمى السابق ذكره ، وقد تأثره فى ترتيبه الطبقات .

أما القرن السادس فقد ظهر فيه كتاب « صفة الصفوة » للمؤرخ ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وهو يعد — فى الحق — تهذيباً وتلخيصاً لحلية أبى نعيم وتصحيحاً لرواياتها ، واتبع فى تبويبه طريقة البلدان ، فبدأ بالمدينة فمكة فبغداد وهكذا حتى بلغ المغرب فالسواحل والفلوات . فإذا ذكر بلداً ذكر طبقات من فيه من النساك وأهل العبادة والزهد من الرجال والنساء . وقد زادت التراجم فيه على ألف ترجمة ، على حين أنها بلغت فى طبقات السلمى مائة وثلاثة من الرجال .

وقد انتهت تراجم الصوفية فى القرن العاشر الهجرى إلى الصوفى المؤرخ عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ فى كتابه : « لواقح الأنوار ، فى طبقات الأخيار » وقد اشتهر باسم « طبقات الشعرانى الكبرى » ، وقد ترجم فيه لأهل

---

(١) نشر أخيرا بتحقيق الأستاذ نور الدين شريبة وقد أحسن بذكر مصادر الترجمة وأجزائها وصفحاتها للمترجم لهم ، فسهل بذلك البحث على الباحثين .

التصوف منذ نشأته فى الإسلام إلى العصر الذى عاش فيه ، فكان بذلك أوفى وأوسع مرجع لمن تفوتهم تراجم كثير من المتصوفة فى غيره من الكتب .

طبقات القضاة

كان القضاء أول الأمر يتولاه النبى عليه السلام بنفسه ، ولما انتشرت الدعوة عهد به إلى بعض ولاته ، وظل الحال على ذلك إلى أن جاء عمر بن الخطاب فعين القضاة فى الأمصار المختلفة ، وخصهم بولاية القضاء وحدها ولاية عامة . وأخذ عدد القضاة يتزايد فى الأقطار الإسلامية ، وكانت لهم أحكام وآثار وأخبار ، فاتجه كتاب التراجم إلى الترجمة لهم كما ترجموا لغيرهم من أصحاب العلوم والفنون .

ولعل أقدم كتاب فى طبقات القضاة هو « قضاة البصرة » لأبى عبيدة معمر ابن المثنى البصرى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ كما ذكر صاحب « كشف الظنون » .

وقد ظهرت الإقليمية واضحة فيما ألف من كتب طبقات القضاة ، ففى مصر نجد المؤرخ أبا عمر محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٥ هـ . يؤلف كتابه « أخبار القضاة المصريين » وينتهى بهم إلى سنة ٢٤٦ هـ ، ونجد ابن زولاق المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ يؤلف كتاباً يتمم به كتاب الكندى السابق ذكره ، وينتهى به إلى سنة ٣٨٦هـ أى قبيل وفاته بعام واحد ، وقد أشار السخاوى إلى الكتابين فى « الإعلان بالتوبيخ » . ثم جاء القرن التاسع فنجد المؤرخ ابن حجر يؤلف كتاب «رفع الإصر ، عن قضاة مصر »وقد بلغ فيه بالتراجم للقضاة المصريين إلى المائة الثامنة .

وهنا نجد الشعر يتدخل فى الترجمة للقضاة ، فنرى ابن دانيال الموصلى الحكيم ينظم أرجوزة فى قضاة مصر سماها « عقود النظام ، فيمن ولى مصر من الحكام » ، ونرى ابن اللبودى الدمشقى ينظم كذلك أرجوزة فى قضاة دمشق .

وفى الأندلس نجد مؤلفى الطبقات يؤلفون فى تراجم القضاة بالأندلس منذ

أن فتحها المسلمون على يد موسى بن نصير . ومن أوائل المؤلفين فى ذلك المؤرخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشنى المتوفى سنة ٣٦١ هـ ، وقد ترجم لقضاة الأندلس حتى سنة ٣٥٦ هـ ، حينما ولى القضاء محمد بن إسحاق بن السليم عقب القاضى المشهور منذر بن سعيد . وقد بلغ عدد التراجم فى الكتاب خمسين ترجمة رتبت ترتيباً زمنياً بحسب تتابع القضاة فى عمل القضاء . وفى القرن الثامن الهجرى نجد الشيخ أبا الحسن النباهى المالقى يؤلف كتاباً فى تاريخ قضاة الأندلس ويسميه « المرقبة العليا ، فيمن يستحق القضاء والفتيا » وهو يضم إلى تراجم القضاة فصولا فى القضاء والعدل والخصال المعتبرة فى القضاة ، والتحذير من الحكم بالباطل أو الجهل ، وغير ذلك من المسائل التى تتصل بموضوع القضاء .

طبقات الأطباء

من عجب أن يكون نصيب الأطباء فى كتب الطبقات والتراجم أدنى نصيب ، حتى لم يذكر لهم السخاوى المؤرخ إلا كتاباً واحداً هو كتاب « عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، وقد بوبه المؤلف طبقات بحسب البلاد والأمم والملل . فهناك طبقة الأطباء اليونانيين — وهؤلاء أقسام — وهناك الأطباء العرب الذين كانوا فى ظهور الإسلام ، وهناك أطباء السريان ، وأطباء النقلة والمترجمين من اللسان اليونانى إلى العربى ، وأطباء العراق والجزيرة ، وأطباء العجم ، وأطباء الهند ، وأطباء المغرب ، وأطباء مصر ، وأطباء الشام . ولم يراع المؤلف ترتيب الأسماء بحسب حروف الهجاء ، فهم يردون فى كل طبقة بغير ترتيب ، مما يجعل البحث عن المترجم له عملا صعباً ، ولهذا رتبه على المعجم المنجم ابن فهد كما ذكر السخاوى ، وقد سوغ ابن أبى أصيبعة تصرفه فى هذا الترتيب غير المعجمى بأنه « ذكر كل واحد منهم فى الموضع الأليق به ، على حسب طبقاتهم ومراتبهم » .

ولا شك أن الترجمة لأكثر من أربعمائة طبيب فى مشارق الأرض ومغاربها وذكر طرف من أخبارهم ونوادرهم، عمل يحتاج إلى مصادر ومراجع لم يذكرها لنا المؤلف فى مقدمته ، ولكنه على كل حال حفظ لنا كثيراً من المعارف الطبية التاريخية فى كتب قد ضاعت ولم تصل إلينا اليوم إلا فى نتف من هذا الكتاب الذى حققه ونشره المستشرق مركوس مولر ، الذى سمى نفسه باسم « امرؤ القيس بن الطحان » وهو تعريب طريف للاسم الأعجمى !

وقد ظل « عيون الأنباء » منذ منتصف القرن السابع الهجرى هو المصدر الوحيد فى تراجم الأطباء إلى عصر مؤلفه ، إلى أن جاء المرحوم الدكتور أحمد عيسى الطبيب اللغوى المحقق من أهل زماننا، فصنع له ذيلا من سنة ٦٥٠ ﻫ إلى سنة ١٣٦١ ﻫ المقابلة لسنة ١٩٤٢ م . فكان بذلك وصلا لتاريخ الأطباء .

وقد خالف الدكتور أحمد عيسى طريقة سلفه ابن أبى أصيبعة فى الترتيب ، فجعل الأعلام فى كتابه مرتبة على حروف المعجم تسهيلا للباحثين ، وتيسيراً على المراجعين .

بقى أن نقول إن هناك طائفة من الحكماء الفلاسفة الذين اشتغلوا بالطب كما اشتغلوا بالفلسفة ، وهؤلاء قد ترجم لهم ابن أبى أصيبعة لأنهم يدخلون فى سمط كتابه ، وكذلك فعل القفطى فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » حين ترجم للأطباء الذين اشتغلوا بالحكمة والفلسفة .

طبقات الفلاسفة والحكماء

لعل أقدم كتاب فى تاريخ الفلاسفة والحكماء هو كتاب «صوان الحكمة[1] » الذى ألفه أبو سليمان المنطقى السجستانى من حكماء القرن الرابع الهجرى ، وقد

(١) « فى كشف الظنون » اسمه «صنوان الحكمة» ، وفى مقدمة « تاريخ حكماء الإسلام » للبيهقى اسمه « صوان الحكمة » ، وكذلك ورد اسمه فى متن حكماء الإسلام .

ذكر البيهقى أن له تصانيف كثيرة أكثرها فى المعقولات . وفى القرن السادس ظهر كتاب « تاريخ حكماء الإسلام» لظهير الدين البيهقى الحكيم المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وهو غير البيهقى المحدث أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ صاحب « السنن » فى الحديث النبوى . ولم يرجع البيهقى الحكيم فى تراجم الحكماء والفلاسفة إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس ، إلا قليلا من الحكماء غير المسلمين من أهل القرنين الثالث والرابع . ولم يتعرض لمن ترجم لهم صاحب « صوان الحكمة » من قبله اعتقاداً منه أنه وفاهم حقهم . ولم تتسع تراجمه لأحد من أهل الشام والمغرب والأندلس ، ولعل أحوال عصره وكثرة الفتن والحروب الصليبية فى عهده لم تسعفه بما كان يجب أن تتم به تراجمه ، وأكثر تراجمه موجزة حتى لتبلغ فى بعض الحكماء ثلاثة أسطر ، كترجمته لمحمد بن أيوب الطبرى صاحب الزيج .

أما القرن السابع فقد خلف لنا كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للوزير المؤرخ المصرى جمال الدين يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وصاحب كتاب « إنباه الرواة » الذى سبقت الإشارة إليه فى الحديث عن طبقات النحويين . وقد ترجم القفطى فى كتابه للحكماء عامة عند اليونان والرومان ، وأهل الإسكندرية والفرس والعرب فى القديم وبعد المسيحية والإسلام إلى زمانه ، وذكر طرفاً من مأثور قولهم ، ومذاهبهم ومصنفاتهم . ورتبهم فيه على حسب حروف الهجاء ، ثم ألحق بذلك فصلين فى الكنى المبدوءة بأبى فلان ، وابن فلان تسهيلا للتناول . ولا يذكر فى التراجم موالد الحكماء ، أما الوفيات فلا يذكرها إلا قليلا .

تواريخ البلدان وتراجم رجالها

حين اتسعت رقعة المملكة الإسلامية ، وأخذت الأمصار والأقطار يزيد عددها ، وصارت المدن الكبرى والحواضر العظيمة مهوى أفئدة العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم من الأعيان والمشاهير ، أصبحت الضرورة تقضى بأن يؤرخ لهذه البلدان، لا تواريخ جغرافية ، ولكن تواريخ بيوجرافية تذكر أسماء من ولد فيها أو نشأ بها أو وفد عليها أو خرج منها، من العلماء والأدباء والعظماء فى كل علم وفن . فكان من ذلك مجموعة غنية من كتب البلدان الحافلة بالتراجم الكثيرة لأهل هذا الإقليم من المشاهير أو الوافدين عليه .

على أن هناك كتباً فى تواريخ البلدان وجغرافيتها وأخبارها ، ولكنها خالية من التراجم المجزئة ، كما فى كتاب « معجم البلدان » لياقوت الرومى ، وكتاب « المسالك والممالك » للبكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ، وكتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

وهناك كتب تعالج تواريخ البلدان من حيث فتوحها ، وأخبار تلك الفتوح ، وما تم فيها من الأخذ صلحاً أو عنوة ، وما جرى فيها من الحروب ، مثل كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، و « فتوح الشام » للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

ويهمنا من كتب تواريخ البلدان التى امتلأت بتراجم الرجال طائفة تمثل اتجاهات التأليف فى هذا الباب .

وأقدم الكتب فى هذا الباب وأوسعها كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وهو كتاب ضخم تناول فيه مؤلفه أولا وصف

عاصمة الخلافة العباسية وما كانت عليه من الحضارة والمدنية ، ثم أخذ يترجم لأصناف المشاهير من الرجال ممن نبغ فيها أو ورد عليها من غير أهلها، مع ذكر أخبارهم ومشهور آثارهم ومؤلفاتهم .

وقد رتب الخطيب الأعلام المترجمة على نسق حروف المعجم، مراعياً أول أسمائهم لا الأسماء التي اشتهروا بها ، واختص المحمدين بالبدء تبركا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد ذلك جرى فى ذكر الأسماء على ترتيب الحروف . وتصادف المطالع — من جراء هذا الترتيب بحسب الأسماء لا أسماء الشهرة — نفس الصعوبة التي نجدها فى كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان — كما سلف القول . وقد قيد الخطيب نفسه فى مقدمة كتابه بذكر تاريخ وفيات المترجم لهم ، وألزم نفسه بقيده، وكثيراً ما نراه يرجح بين روايتين فى تاريخ الوفاة ، لاعتبارات يراها قريبة إلى الصواب ، أو لما يقوم عنده من المرجحات .

وقد لقى « تاريخ بغداد » من الشهرة والقبول ما دعا العلماء إلى النسج على منواله فيما يتصل بالبلدان والعواصم الإسلامية الأخرى ، فجاء ابن عساكر المؤرخ والمحدث المشهور « توفى سنة ٥٧١ هـ » وكتب كتابه الضخم « تاريخ دمشق » ، وجرى على طريقة الخطيب البغدادى فى الاتساع والإفاضة والشمول لتراجم الرجال الذين ولدوا بدمشق أو نزلوا بها ، ولم يترك — كما صنع الخطيب — عالماً أو راوياً أو محدثاً أو مفسراً أو مؤرخاً أو سياسياً أو أديباً أو شاعراً أو صاحب قدر إلا ترجم له وذكر شيئاً كثيراً من أخباره وآثاره وأقواله . وقد جرى فيه على طريقة الإسناد كما صنع الخطيب البغدادى . والمؤرخان متأثران هنا بطريقة أهل الحديث والحفاظ . فقد كان كل منهما حافظاً من أكبر الحفاظ فى عصره ، فالبغدادى محدث العراق وعاصمة العباسيين فى وقته ، وابن عساكر محدث الشام فى زمنه .

وقد صنع علماء الأمصار الإسلامية غير العربية ما صنعه البغدادى وابن عساكر فى العاصمتين العربيتين الكبيرتين ، فرأينا الرجال يؤلفون فى تواريخ

أذربيجان ، وإربل ، وأصبهان، وجرجان ، وبخارى ، وبلخ ، وغيرها . ويحضرنا هنا — على سبيل الاستشهاد — كتاب « تاريخ جرجان » أو كتاب « معرفة علماء أهل جرجان » الذى ألفه حمزة بن يوسف السهمى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ . وقد قسم كتابه إلى أربعة عشر جزءاً ، وتحدث فيه عن فتح جرجان ومن دخلها من الصحابة والتابعين ، ولم يفته بالطبع أن يترجم ليزيد بن المهاب فاتح جرجان وأن يذكر نسبه وأولاده وبيته ، وبعد أن ذكر أسماء عمالها من الأمويين والعباسيين وسمى خطط المساجد فى عهدهم ، ابتدأ يترجم للرجال مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم ، ولم يراع إلا الحرف الأول فقط من الاسم . ومن هنا ترجم لأحمد قبل الترجمة لإبراهيم ، ولو أنه راعى ترتيب الحروف التالية للأول لترجم لإبراهيم قبل أحمد، لأن الباء تقع قبل الحاء ، وألحق بالكتاب باباً لتراجم المشهورين بكناهم ، ثم تراجم النساء . ولما كان السهمى محدثاً كبيراً فقد اتبع طريقة المحدثين فى الإسناد ، فيقول مثلاً : حدثنا فلان عن فلان عن فلان، حتى يصل إلى الراوى الأول للخبر [١] .

ولم يفت مؤرخى الأندلس أن يترجموا لعلماء البلدان والمدن الأندلسية حين يؤلفون فى تواريخ البلاد . فهناك كتب كثيرة ألفت فى رجال الجزيرة الخضراء بالأندلس وألبيرة وقرطبة وغرناطة وغيرها ، ويحضرنا الآن كتاب « الإحاطة [٢] ، فى أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

وقد كتب ابن الخطيب مقدمة لكتابه الواسع ذكر فيها الباعث له على تأليف الكتاب ، وهو باعث يرجع إلى « العصبية الإقليمية » كما صرح بذلك فى قوله : « فداخلتنى عصبية لا تقدح فى دين ولا منصب ، وحمية لا يذم فى مثلها متعصب » والحق أن ابن الخطيب قد كشف فى مقدمة كتابه عن روح وطنية قومية عالية دفعته دفعاً إلى تأليف هذا الكتاب ، وكان غرامه بالأندلس عامة

---

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة فى حيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٩٥٠ م

وبوطنه غرناطة خاصة سبباً فى إنجاز هذا المؤلف الواسع . ويصرح ابن الخطيب فى موضع آخر من المقدمة بوطنيته فيقول : « فلست ببدع ممن فتن بحب وطن ، ولا بأول من شاقه منزل فألقى بالعطن ، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه ، وطرفه مغرى بإتمام محاسنه » .

ولعل ما صرح به ابن الخطيب هنا يعبر أصدق تعبير عن الدوافع الحقيقية التى دفعت مؤرخى تراجم البلدان إلى كتابة مؤلفاتهم ، فالبغدادى يتعصب لبغداد وطنه ، وابن عساكر الدمشقى يتعصب لدمشق وطنه ، والأزرقى المتوفى سنة ٢٢٣ هـ يتعصب لمكة ولو أنه يمنى ، لأنه جاء مكة فعاش بها وتوفى فيها ، وأبو نعيم الأصفهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ يتعصب لوطنه أصبهان فيكتب كتابه « تاريخ أصبهان » فى تراجم أعيانها وعلمائها

ولسنا الآن بسبيل إحصاء كتب تواريخ البلدان وتراجم رجالها ، فهى مذكورة فى كتب التاريخ الأدبى ، وفى « كشف الظنون » لحاجى خليفة ، وفى « الإعلان بالتوبيخ » للسخاوى . وفى مقدمة ابن الخطيب للإحاطة طائفة كبيرة من أسماء هذه الكتب ، ذكرها — مع كثرتها — على سبيل المثال لكتابه الذى لم يكن بدعاً منها ، ولا خارجاً عنها .

ولم يجر ابن الخطيب فى « الإحاطة » على طريقة الإسناد التى اتبعها ابن عساكر والخطيب البغدادى فى تاريخيهما لدمشق وبغداد ، ولكنه ينقل بعض النصوص من كتب الذين سبقوه ، كما ينقل بعض النصوص من كتبه هو الأخرى ، وله فى الترجمة للرجال طريقة طريفة . فهو يذكر حال المترجم له ، وأوليته — يعنى أصوله — ومشيخته ، وتلاميذه ، وتصانيفه ، ومولده ، ووفاته .

وجرى صاحب « الإحاطة » فى ترتيب الأعلام على الحروف المبوبة المرتبة ، ولكنه بدأ بأحمد قبل إبراهيم ، لأنه راعى الحرف الأول فقط من الاسم . ولكنه راعى فى ترتيب طبقات التراجم ذكر الملوك أولا ، ويليهم الأمراء ، ثم الأعيان

والكبراء ، ثم القضاة فالمقرئون والعلماء ، ثم الكتاب والشعراء، واستمر فى طوائف الرجال حتى ختم بالصوفية الفقراء « ليكون الابتداء بالملك ، والاختتام بالمسك » .

وابن الخطيب دقيق فى الترجمة ، يعطى الصورة الحسية للمترجم له دقيقة كالصورة الأدبية المعنوية ، ولا يجعل المعانى أسيرة اللفظ والتعبير والتزويق والتنميق ، والسجع والتكلف ، والقسر والتعسف ، كما صنع ابن خاقان مثلا فى « قلائد العقيان » . ولكن مواتاة الأفكار له تأتيه فى لفظ بليغ ، وأسلوب جميل يسجع فيه أحياناً ، ويترسل فيه كثيراً، كقوله فى ترجمة السلطان محمد بن يوسف ابن إسماعيل من ملوك دولة بنى الأحمر فى غرناطة : « هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة ، وأسعدهم ميلاداً وولاية ، قد جمع الله له بين حسن الصورة ، واستقامة البنية ، واعتدال الخلق ، وصحة الفكر ، وثقوب الذهن ، ونفوذ الإدراك ، ولطافة المسائل ، وحسن التأتى ، وجمع له من الظرف ما لم يجمع لغيره ، إلى الحلم والأناة اللذين يحبهما الله ، وسلامة الصدر التى هى من علامة الإيمان ، ورقة الحاشية ، وسرعة العبرة ، والتبريز فى ميدان الطهارة والعفة ، إلى ضخامة التنجد ، واستحداث الآلة ، والكلف بالجهاد ، وثبات القدم ، وقوة الجأش ، ومشهور البسالة ، وإيثار الرفق ، ونجح المحاولة » .

ويحضرنا الآن مثال للموازنة بين أسلوب ابن خاقان وابن الخطيب فى الترجمة لرجل واحد، هو المعتمد بن عباد ، فابن خاقان يقول : « كان المعتمد على الله ملكا قمع العدا ، وجمع بين البأس والندى ، وطلع على الدنيا بدر هدى . لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه ، آونة يراعه وآونة سنانه . وكانت أيامه مواسم ، وثغور بره بواسم . . . » وابن الخطيب يقول فيه : « كان رحمه الله فارساً شجاعاً ، بطلا مقداماً ، شاعراً ماضياً ، مشكور السيرة فى رعيته » .

ولن ندع « الإحاطة » هنا من غير إشارة إلى كتاب آخر فى تراجم رجال

الأندلس بحسب البلدان ، وهو كتاب « المغرب فى حلى المغرب » [1] الذى صنفه بالموارثة فى أكثر من مائة سنة ستة من علماء الأندلس ، منهم الحجارى وابن سعيد « على بن موسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ » . والكتاب مقسم حسب كور الأندلس المقسمة إليها بلادها ، فيبدأ بكرسى المملكة وقاعدة الولاية ، ويتحدث عن بنائها وتاريخها وما يحف بها من نهر أو يحتضنها من روض ، أو يميزها من خاصة معدنية أو نباتية ، ثم يأخذ فى الترجمة لرجالها طبقة بعد طبقة ، وهى طبقة الأمراء ، والرؤساء ، والعلماء ، والشعراء ، واللفيف . ويدخل فى طبقة اللفيف من ليس له نظم من أي صنف كان .

وقد استفاد ابن سعيد مؤلف « المغرب » من كتب الذين سبقوه إلى التأليف فى هذا الباب ، كابن حيان ، وابن بشكوال ، والحميدى ، وابن الفرضى ، وابن بسام ، وابن خاقان وغيرهم ، وكثيراً ما يروى عن والده موسى بن سعيد فيقول : أخبرنى والدى ، أو يقول : وجدت بخط والدى .

---

(١) أخرجته « دار المعارف بمصر » فى جزءين كبيرين بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، وقد خدمه بالفهارس النافعة المفيدة .

الفصل الرابع

حول كتابة التراجم

تراجم النساء — التراجم بين الطول والإيجاز — التراجم بين الإنصاف والتحليل — التحقيق فى كتب التراجم — العناية بتواريخ الميلاد والوفاة — مصادر التراجم — ترتيب الأعلام المترجمة — ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب — تلخيص كتب التراجم وتذييلها — المعاصرة وأثرها فى كتابة التراجم .

تراجم النساء

لم يسقط مؤرخو التراجم ومؤلفوها فى الإسلام المرأة العربية المسلمة من حسابهم ، وفى ذلك من تقدير النظرة الإسلامية للمرأة وإنزالها منزلتها ما ينبغى الإشارة إليه فى بحث خاص . والحق أن مؤلفى التراجم عندنا قد أنصفوا المرأة حين وضعوها فى قوائم أعمالهم ، فأفردوا بعض النساء بالترجمة فى كتب خاصة ، أو ترجموا لهن مع الرجال على السواء فى كتب التراجم عامة ، فهذا أحمد بن أبى طاهر طيفور الخراسانى المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وصاحب كتاب « بغداد » المشهور يؤلف كتاباً فى « بلاغات النساء وطرائف كلامهن ، وملح نوادرهن ، وأخبار ذوات الرأى منهن ، وأشعارهن فى الجاهلية وصدر الإسلام » وهو الكتاب الذى طبعت قطعة منه فى العشر الأوائل من هذا القرن بعنوان « المنثور والمنظوم » . وهذا أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى المتوفى [1] سنة ٥٥٧ هـ يذكر حاجى خليفة

المؤرخ أن له كتاباً فى « تاريخ النساء »، وإن كان ابن خلكان لم يذكر له هذا الكتاب فى ثبت مصنفاته . ويذكر السخاوى المؤرخ أن لابن عساكر كتاباً اسمه « معجم النسوان » ، على أن لتاج الدين على بن أنجب البغدادى المتوفى سنة ٦٧٤ هـ كتاباً فى « تاريخ نساء الخلفاء ، من الحرائر والإماء » .

وفى عصرنا هذا ظهر كتابان خاصان بأعلام النساء وطبقاتهن وتراجمهن ، أما الكتاب الأول فهو « الدر المنثور ، فى طبقات ربات الخدور » للأديبة الكاتبة زينب فواز السورية مولداً وموطناً ، المصرية نشأة وسكناً المتوفاة ١٩١٤ م وقد ترجمت فى كتابها لشهيرات النساء فى القديم والحديث من العرب وغيرهن ، فتجد فيه ترجمة ماجدة القرشية بجوار ترجمة ماريا تريزا النمسوية ، وترجمة متيم الهاشمية بجوار ترجمة مارجريت ملكة إنجلترة . والأعلام فى هذا الكتاب الثمين مرتبة حسب حروف المعجم ،فتبدأ بآمنة بنت وهب أم النبى عليه السلام ، وتنتهى بعد ولادة بنت المستكفى فى حرف الواو بمن تبدأ أسماؤهن بحرف « اللام ألف » .

أما الكتاب الثانى فهو « أعلام النساء ، فى عالمى العرب والإسلام » للأستاذ عمر رضا كحالة الأديب السورى المعاصر ، وقد رتبه على حروف المعجم ترتيباً يسهل المراجعة إلى حد كبير ، وراعى الترتيب فى الاسم الأول والثانى وهكذا . وهو — على إيجاز التراجم فيه — يعد مرجعاً هاماً للباحثين فى تاريخ المرأة العربية المسلمة، لأنه يختم كل ترجمة بذكر المراجع التى وردت فيها سواء أكانت مراجع قديمة أم حديثة .

ويظهر الفرق واضحاً بين هذا الكتاب وكتاب «الدر المنثور» الذى جمع بين نساء العالم كله قديماً وحديثاً ، على حين اختص هذا بنساء العرب والإسلام ، كما اختص بذكر مراجع كل ترجمة حتى يسهل الرجوع إليها فى مظانها .

---

(١) فى "كشف الظنون" أنه توفى سنة ٥٠٧ هـ . وهو تحريف مطبعى.

وقد تنبهت المرأة العربية أخيراً إلى واجبها نحو الترجمة والسيرة لبنات جنسها ، لعل مشاكلة الجنس بين المؤلفة والمترجم لها تكون أدعى إلى فهم النفسية، وتحليل الشخصية ، وتقدير المزايا التي قد تكون المرأة أعلم بها في أختها . ولن نذكر هنا أكثر من التمثيل بما كتبته الآنسة مي في حياة باحثة البادية ، وبما كتبته الدكتورة بنت الشاطئ في حياة « بطلة كربلاء » و« آمنة بنت وهب » و « نساء النبي » ، وبما كتبته الأديبة وداد سكاكيني في حياة « أمهات المؤمنين» و« رابعة العدوية » المتصوفة العاشقة .

أما مكان المرأة العربية المسلمة في كتب الطبقات والتراجم فهو مكان لا تكاد يخلو منه كتاب عام . ففي « معجم الأدباء » لياقوت الرومي تراجم للنساء ولو أنهن قليلات ، وفي « وفيات الأعيان » تراجم كذلك للنساء من أمثال السيدة سكينة ورابعة العدوية وأم المؤيد وغيرهن ، وفي « الوافي بالوفيات » تراجم لبعض النساء، منهن السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وفضل الجارية ، وفي « صفة الصفوة » لابن الجوزي المؤرخ تراجم كثيرة للنساء المتعبدات الناسكات ، وفي « الدرر الكامنة » لابن حجر تراجم في شهيرات القرن الثامن ، وفي عشرات وعشرات من كتب التراجم والطبقات نرى اسم المرأة العربية المسلمة بارزاً آخذاً بنصيبه كالرجل سواء بسواء .

ومن الحق أن نشير هنا — في مقام التنويه بالفضل — إلى ما صنعه مؤرخ السيرة والمغازي المشهور ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وصاحب كتاب « طبقات ابن سعد » في الاهتمام بالمرأة وإعطائها قدراً من عنايته ، وإنصافه إياها حين ترجم للنساء الصحابيات في طبقاته . فقد نبه بهذا العمل الجليل من جاء بعده من المؤرخين وكتاب الطبقات والتراجم إلى إنصاف المرأة العربية المسلمة، في معرض يجب فيه الإنصاف ، بلا خلاف . . .

التراجم بين الطول والإيجاز

قد تطول التراجم أو تقصر ، وقد تفيض أو تغيض تبعاً لاعتبارات كثيرة يرجع بعضها إلى كاتب الترجمة أو السيرة ، وبعضها إلى المترجم لهم . ولا شك أن طائفة المعارف والمعلومات والحقائق التى تتصل بالمترجم له تعين كثيراً على الإطالة فى الترجمة له ، وعلى فسح مجال القول فيه ، فهنا يجد كاتب الترجمة فيضاً واسعاً من المادة التى تطول معها الترجمة .

ولقد أتاحت بعض الشخصيات الإسلامية الهامة الغنية لكتاب التراجم أن يطيلوا فى تراجمهم تبعاً لأهميتهم وغزارة المادة فيهم . فالشاعر أبو العلاء المعرى قد أتاح للمؤرخ ياقوت الرومى أن يترجم له فى أكثر من مائة وعشر صفحات ، وكذلك كانت حياة أسامة بن منقذ الأمير الفارس العربى المجاهد مادة خصبة لياقوت ، فكتب فى ترجمته ستين صفحة من كتابه « معجم الأدباء » ، على حين أنه ترجم لبعض الرجال فى أربعة أسطر ، ولقد بلغ الصاحب بن عباد القمة عند ياقوت حين ترجم له فى مائة وخمسين صفحة ، وهو قدر أعان عليه ما دار حول الرجل من ضجة ، وما أثاره فى حياته من خصومات ومنازعات ، وما كان فى شخصيته من مناقضات حملت كاتباً كبيراً كأبى حيان التوحيدى على أن يصور غروره تصويراً كان فيه من التحامل أكثر مما فيه من النصفة لأديب من كبار أدباء العربية .

على أن كاتب الترجمة — من ناحية أخرى — قد يطيل فيها مراعاة لجانب المترجم له إذا كان حياً معاصراً ، وقد يكون لاعتبار النفوذ ، ورعاية الزلفى ، وقصد التقرب دخل كبير فى مقدار الترجمة والسيرة ، بل قد يصل أحياناً إلى مراعاة المجاملة والتحيز .

ولا نستطيع أن نصف كاتباً كبيراً كلسان الدين بن الخطيب المؤرخ

الأندلسى بالتحيز حين ترجم للسلطان محمد يوسف بن إسماعيل ملك غرناطة وأمير المسلمين لعهد ابن الخطيب فى الأندلس فى القرن الثامن الهجرى . ولكنه بلا شك قد جامل سلطانه وملكه حين ترجم له فى « الإحاطة » فى قرابة ستين صفحة ، وجامله أكثر حين أفاض عليه من بالغ الأوصاف وبليغها ما تتضاءل معه الصفات ، كقوله فيه : « اشتهر شهرة ذكاء فى الضحى ، مستولياً على المدى ، بالغاً بالانتساب إلى سعد بن عبادة عنان السما ، وكفى بذلك فخراً عند من سمع ورأى » .

والحق أن لسان الدين بن الخطيب كان من صنائع ملوك بنى الأحمر فى غرناطة ، بل كان وزيراً للسلطان محمد كما كان وزيراً لأبيه من قبل ، فلا غرابة إذا بالغ فى الصفة ، وأغرق فى المدح حين يترجم ويؤرخ ، إلا أنه كان مبالغاً دائماً فى الترجمة لمعاصريه وللسابقين على حد سواء ، وذلك ملحوظ فى تراجمه فى « الإحاطة » .

ولقد نبه المؤرخ السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ ، لمن ذم التاريخ » إلى ضرورة التعبير فى الترجمة للرجال « بعبارة لا تزيد عنه ولا تنقص » ، كما اشترط فى كاتب الترجمة أو السيرة : « أن لا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه ، والتقصير فى غيره ، وذلك بأن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك معه طريق الإنصاف ، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز » .

التراجم بين الإنصاف والتحامل

ولا شك أن كلام المؤرخ السخاوى فى الإنصاف والتجرد عن الهوى جميل وواجب أن يكون نصب عينى مؤرخى السير والتراجم حين يكتبون ، فإن الحقيقة العلمية تضيع متى تحيز المؤرخ أو تحامل أو جامل . ومن الصعب على المترجم

المنصف النزيه أن يجرد نفسه تماماً من عوامل التحيز ، والتجرد ، والهوى ، وهى آفة المرء دائماً فيما يأتى أو يدع . ولعل السخاوى نفسه لم يأخذ نفسه بالإنصاف الذى دعا إليه حين ألف كتابه الشهير « الضوء اللامع ، فى أعيان القرن التاسع » ، فقد دفعته عوامل المعاصرة وما يدور حولها من المنافسة والحسد بين الرجال إلى أن يتحامل على كثير من علماء عصره حين ترجم لهم ، ولم يكن منصفاً لهم ، ولا مالكاً زمام هواه حين وقع فيهم بما يستغرب صدوره من مؤرخ مثله ، وضع للمؤرخين مناهج وقواعد فى كتابه القيم « الإعلان بالتوبيخ ، لمن ذم التاريخ » . فقد كانت بينه وبين الإمام السيوطى المؤرخ الكبير المعاصر له جفوة ، وحدث بينهما ما يحدث بين أبناء الصنعة الواحدة ، فنسى السخاوى مذهبه فى الإنصاف والتجرد وقهر الهوى ، وأطال لسانه فى السيوطى وهو يترجم له فى الجزء الرابع من « الضوء اللامع » ، ورماه بالكذب على الشيوخ ، واختلاس المؤلفات ، وضعف الكفاية فى التدريس ، وغمزه كثيراً ، بل تعرض لبعض خصوصياته كقوله فيه : « ولم أزل أعرفه بالهوس ، ومزيد الترفع حتى على أمه ، بحيث كانت تزيد فى التشكى منه » .

ولو أن السخاوى المؤرخ المترجم للرجال بعد عن التحامل على رجال عصره لكان مثالا لكتاب التراجم على النحو الذى اقترحه هو فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » ، إلا أن هناك عاملا نفسياً لا يجدر إغفاله هنا ، فقد كان السخاوى شديد التحامل حين يترجم لرجال التاريخ من أهل عصره ، ولعله كان يريد أن يتفرد وحده بأنه هو مؤرخ زمانه ، فحاول النيل من كل مؤرخ ظهر فى عصره ، أو التنقص من قدره ، ولعل غمزاته فى معاصره المقريزى المؤرخ تفسر لنا هذه الناحية ، فقد اتهمه بأنه سرق كتابه المشهور فى خطط مصر والقاهرة من مسودة للمؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدى « كان قد تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها ، فبيضها التقى المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات» ، ثم غمزه مرة أخرى بقوله : « وصارت له فيه ــ يعنى التاريخ ــ جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ،

وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى كما سبق فى ترجمته ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » ، ثم زاد فى التحامل فنسب إليه الكذب فى بعض أخباره .

على أن رأى المؤرخ ابن حجر — شيخ المؤرخ السخاوى — فى خطط المقريزى يخالف رأى تلميذه ، فقد عرف الشيخ بالإنصاف والتجرد من الهوى ، ولهذا لم يتعرض لحكاية سطو المقريزى على الأوحدى فى كتابه « الخطط » وهو يترجم للمقريزى فى معجمه ، بل قال فيه : « له النظم الفائق ، والنثر الرائق ، والتصانيف الباهرة ، وخصوصاً فى تاريخ القاهرة ، فإنه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » .

والسخاوى يخبط فى قصة سطو المقريزى على الأوحدى ، فتارة يعزو الرواية إلى شيخه ابن حجر ، وتارة يذكرها كأنها من عنده هو . وقد رأيت رأى ابن حجر فى المقريزى ، فلم يبق إلا أن نستظهر من هذا الخبط تحامل السخاوى الذى يظهر لنا أيضاً فى تراجمه للمؤرخين من أهل عصره : ابن تغرى بردى ، والبقاعى ، وحتى ابن خلدون الذى لم يسلم من لومه والتعريض به .

وما أبشع التحامل بين المؤرخين وكتاب السير والتراجم حين يختلط فيه الأمر على القارىء الذى يبغى الوصول إلى الحقيقة ، فقد يكون المترجمون على النقيضين حين يترجمون لرجل واحد ، ويحضرنا الآن مثال من ذلك ، فعبدالرحمن ابن على التفهنى القاهرى كان من علماء مصر فى المائة التاسعة . ولكن آراء المؤرخين فيه تختلف باختلاف التجرد أو الهوى والمصلحة والعوامل النفسية . فالمؤرخ ابن حجر يقول عنه : « وكان حسن العشرة ، كثير العصبية لأصحابه ، عارفاً بأمور الدنيا وبمخالطة أهلها » ثم قال عنه مرة أخرى : « وكان حسن الأخلاق ، كثير الاحتمال ، شديد السطوة ، إذا غضب لا يطاق ، وإذا رضى لا يكاد يوجد له نظير » ثم قال عنه فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » وهو فى تراجم القضاة بمصر : « إنه سار فى القضاء سيرة محمودة ، وخالق الناس بخلق حسن ، مع

الصيانة والإفضال ، والشهامة ، والإكباب على العلم » .

ولكن اسمع ما يقوله فيه المؤرخ العينى بدر الدين المتوفى سنة ٨٥٥هـ وهو معاصره : « كان أبوه عامياً من الزراع فى تفهنة والمتسببين بها ، فهرب ابنه منه بعد بلوغه إلى القاهرة ، وخدم بها حماراً . . . وحصل له بعض تميز بين الناس فناب فى القضاء ، واتصل ببعض الأمراء ، فتمول ، فبطر وطغى ، فسعى فى قضاء الحنفية بالرشى والبرطيل . . . وكان صاحب غرض فاسد ، يبذل أشياء لأغراضه الفاسدة ... ولم يعهد أنه درس كتاباً كاملا ولا كتب بيده كتاباً كاملا ، ولا تأليفاً ولا جمعاً . . . وكان فى الدعوى كثير الهذيانات والفشارات . . . »

وإذا رجعنا إلى التاريخ نستخبره سر تحامل المؤرخ العينى على التفهنى أفادنا أن الاثنين كانت بينهما منافسة فى الصنعة والمشيخة ، وكان التفهنى محظوظاً عند أمراء مصر، وخاصة بعد أن تزوج ابنة الشهاب المحلى كبير تجار مصر، فعظم بين الناس قدره ، ولما تولى مشيخة المؤيدية سعى عليه المؤرخ العينى حتى صرف به عنه . وكان هو والعينى يتعاوران القضاء والمشيخة تبعاً لنفوذهما عند أولى الأمر . فحملت المنافسة والمنصب على أن يكون رأى العينى فى صاحبه كما رأينا.

التحقيق فى كتاب التراجم

إن التحقيق ، ومعارضة الروايات بعضها بعض ، وتحرى الحقيقة هى من شروط المترجمين وكتاب السير ، كما هى من شروط المؤرخين ، فالتأريخ لحياة الأفراد والجماعات لا يعدو أن يكون نوعاً من التاريخ العام . ويحضرنا من كتاب التراجم مثال رائع يتجلى فى ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » الذى كان يحقق المسائل ويبدى فيها بالرأى الحسن ، ولا يجزم فى مسألة بما لم ينته إليه يقينه، وهنا يستعمل : أظن وأحسب وما شابهها من صيغ الظن . فإذا كان واثقاً من مسألة قال : والذى أعلمه، والذى أعرفه، وما ماثلها من صيغ اليقين . فيقول فى ترجمة

الهروى : (« المؤدب صاحب كتاب « غريبى القرآن والحديث » ، والسابق إلى الجمع بينهما فى علمنا » ويقول فى ترجمة إبراهيم الحصري القيرواني : « والذى أعرفه أنا من تصانيفه كتاب « زهر الآداب ») .

ومن تحقيق ياقوت الرومى ما ذكره فى ترجمته لإبراهيم بن ممشاذ المتوكلى ، فهناك روايتان : إحداهما أنه تسخط صحبة أولاد الخليفة العباسى المتوكل ، فتركهم ولحق بيعقوب بن الليث الصفار الخارج على الدولة العباسية فى منتصف القرن الثالث . والرواية الأخرى تقول : إن المعتمد الخليفة العباسى نفسه وابن المتوكل هو الذى أنفذه رسولا عنه وعن الموفق إلى يعقوب بن الليث ، فنحن هنا أمام روايتين تقول إحداهما إن المترجم له ترك الخليفة ساخطاً ، وتقول الثانية إنه تركه رسولا منفذاً من قبله ، وهنا لا يسكت ياقوت المؤرخ المحقق ، ولا يكتفى بذكر الروايتين كما يصنع كثير من المؤرخين والمترجمين ، ولكنه يعلق قائلا : « والأولى من هاتين الروايتين أصح فى أنه هو الذى لحق بيعقوب ، يدل على ذلك أنه كتب من عند يعقوب إلى المعتمد :

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائز إرث ملوك العجم
فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم ! »

• • •

وقد تظل بعض المسائل دهراً طويلا كأنها حقيقة تاريخية ، إلى أن يجىء من يصححها ويبين الخطأ فيها بشاهد من التاريخ أو بدليل قوى من الواقع ، فقد زعم سهيل بن ذكوان أنه روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، وأنه لقيها بمدينة واسط ، مع أن السيدة عائشة ماتت سنة ٥٨ هـ والحجاج بنى مدينة واسط بعد ذلك بدهر . فكيف يلتقى بها فى مدينة كانت حين وفاة عائشة لا تزال سرا فى ضمير الغيب ؟ . ولقد صحح السخاوى هذا الزعم ، ولعله نقله عن بعض شيوخه وخاصة المؤرخ المحدث الحافظ ابن حجر .

وقد يجمع مؤرخو السير والتراجم على رأى معين فى مسألة معينة ، وينقلها بعضهم عن بعض إلى أن يظهر من الدلائل أو الوثائق ما يصحح الرأى فيها . فقد أجمع مترجمو حياة الشاعر الإنجليزى شيللى « ١٨٢٢ م » — وفيهم أندريه موروا أحدث المترجمين له — على أن زوجته الأولى هارييت وستبروك كانت موضع شكوك من ناحية السلوك — إلى أن عثر بأخرة من الزمان فى أول العقد الثالث من القرن العشرين على رسائل من الشاعر شيلى إلى زوجته هارييت، تثبت براءتها مما وقع فيه المؤرخون .

العناية بتواريخ الميلاد والوفاة

يبدو اهتمام كتاب التراجم ومؤرخى المسلمين بالوفيات أكثر من المواليد ، من هذا العدد الكثير من الكتب التى ألفت على الوفاة وضبطها وتحقيقها . ويكفى أن يهتم ابن خلكان المؤرخ بمسألة وفيات الرجال فيجعل عنوان كتابه الجليل « وفيات الأعيان » ، وهو يوحى بهذا العنوان إلى الغرض الأهم من كتابه ، وهو حفظ الوفيات حتى لا تضيع على الزمان .

وقد حاول ابن خلكان قدر جهده أن يؤرخ لميلاد المترجم لهم، واشترط ذلك بالقدرة عليه ، فإن الميلاد أصعب ضبطاً وأعسر تقييداً من الوفاة . لأن الشخص حين يولد لا يعلم ماذا يكون من شأنه ولا ما يصير إليه مستقبل أمره، فلا تقوم هناك حاجة إلى حفظ تاريخ مولده، فإذا مات تكون شهرته أو مكانته أو علمه أو أدبه دالا عليه ومنبهاً إليه ، فيحفظ المؤرخون تاريخ وفاته .

ولقد حفظ لنا ابن خلكان كثيراً من موالد الأعيان المترجم لهم ، وقد يؤرخ الميلاد باليوم من الأسبوع والتاريخ من الشهر والسنة ، فإذا عجز عن ذلك أرخ الميلاد بحادثة أو خلافة ، كما فعل فى ترجمته لأبى بكر بن عبد الرحمن بن مخزوم

القرشى أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، فإنه ذكر أنه ولد فى خلافة عمر بن الخطاب.

وقد لفت إهمال المؤرخين وكتاب التراجم للوفيات نظر المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي « ٧٤٨ هـ » فقال فى مقدمة كتابه « تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام » : « ولم يعتن القدماء بضبط الوفيات كما ينبغى ، بل اتكلوا على حفظهم ، فذهبت وفيات خلق من الأعيان من الصحابة ومن تبعهم إلى قريب زمان أبى عبد الله الشافعى ، فكتبنا أسماءهم على الطبقات تقريباً ، ثم اعتنى المتأخرون بضبط وفيات العلماء وغيرهم ، حتى ضبطوا جماعة فيهم جهالة بالنسبة إلى معرفتنا لهم ، فلهذا حفظت وفيات خلق من المجهولين ، وجهلت وفيات أئمة من المعروفين »

وعلى الرغم من تحقيق المؤرخين لوفيات الرجال فقد وقع فى بعضها خلط واضطراب وروايات متعددة ، تحتاج فى تحقيقها إلى كثير من الجهد والنظر ومعارضة الأصول ومقابلة الأحداث. فابن القاص الطبرى الفقيه الشافعى قيل فى وفاته إنه مات سنة ٣٣٥ هـ ، وقيل سنة ٣٣٦ هـ ، والثعلبى المفسر المشهور تختلف الأقوال فى وفاته بين سنة ٤٢٧ هـ ، ٤٣٧ هـ ، وابن الراوندى عالم الكلام المشهور يقال إنه مات سنة ٢٤٥ هـ و سنة ٢٥٠ هـ ، وأحمد بن فارس الإمام اللغوى الكبير قيل إنه توفى سنة ٣٧٥ هـ وسنة ٣٩٠ هـ ، وأبو العتاهية الشاعر المشهور قيل إنه توفى سنة ٢١١ هـ وسنة ٢١٣ هـ ، وبشار بن برد تختلف وفاته بين ١٦٧ هـ ، ١٦٨ هـ ، وابن رشيق القيروانى صاحب كتاب « العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده » تختلف الأقوال فى وفاته بين ٤٥٦ هـ ، ٤٦٣ هـ .

ولا يقف المؤرخ أو كاتب الترجمة صامتاً أمام هذا الاختلاف فى سنى الوفاة للمترجم لهم ، بل لا بد أن يحققها قدر جهده وعلمه ، ولا بد أن يبدى فيها رأياً . وقد لا يكون الرأى مستنداً إلى دليل أكثر من ثقة المترجم فى صاحب القول الذى أخذ به . كما صنع ابن خلكان فى تاريخ وفاة ابن رشيق ، فإنه آثر

رواية من قال إنه توفى ٤٦٣ هـ، وقال عنها إنها أصح من الرواية الثانية التى وجدها بخط بعض الفضلاء .

إلا أن الترجيح بالدليل المادى يكون أحسن وأليق بعمل المترجم المحقق . فقد أرخ جماعة وفاة مجمع بن يعقوب بن مجمع بن زيد بن جارية الأنصارى بأنها كانت سنة ١٦٠ هـ ، فلم يقبل الذهبى المؤرخ هذا وتوقف فيه، لأن قتيبة كان ممن روى عن مجمع ، وكانت رحلته إليه بعد سنة ١٧٠ هـ ، فلا بد أن تكون وفاة مجمع بعد هذا التاريخ . ولكن لا بد لإتمام التحقيق من خطوة أخرى ، وهى تحقيق رحلة قتيبة ، والتأكد تاريخياً من أنها كانت بعد عام سنة ١٧٠ هـ .

مصادر الترجمة

يرجع كتاب التراجم والسير إلى مصادر ومراجع يأخذون منها مجموعة المعارف والمعلومات التى يثبتونها فى تاريخ المترجم لهم . وقد تبنى هذه المعارف على الاتصال الشخصى بالمترجم له ، كما فى ترجمة بهاء الدين بن شداد المؤرخ « ٦٣٢ هـ » لصلاح الدين الأيوبى حينما كتب سيرته « النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية » وترجمة أبى النصر العتبى المؤرخ « ٤٢٧ هـ » للسلطان محمود الغزنوى فى كتابه المعروف باسم « اليمينى » ، وكما فى ترجمة لسان الدين بن الخطيب للسلطان محمد ابن يوسف ملك غرناطة ، وكان ابن الخطيب وزيراً له ولوالده من قبله .

وقد يستمد كاتب التراجم معارفه عن طريق السماع ، كما جرى عليه الشأن فى كثير من كتب التراجم ، فيتلقى المؤلف أخباره سامعاً من هذا ، وناقلا عن ذاك ، كما صنع ابن خلكان حين نقل عن أفواه الأئمة المعاصرين له ، وكما صنع من قبل أبو عبد الله الخشنى المتوفى سنة ٣٦١ هـ حين ترجم للقضاة الأندلسيين فى كتابه المشهور « قضاة قرطبة » ، فهو يقص أخبار المترجم له قائلا : « وسمعت بعض أهل العلم يحكى » أو قائلا : « حكى لى عنه بعض إخوانى » ، أو

كما صنع ابن سعيد المغربي حين يسمع من كثير من الناس وفيهم والده المؤرخ الأديب ، فيقول : أخبرني والدي ، أو قال والدي ، أو غير ذلك من العبارات .

أما ذكر الأخبار عن طريق الإسناد فكان سبيل كتاب الطبقات والسير والتراجم زمناً طويلا ، نجد ذلك في « طبقات ابن سعد » المتوفى سنة ٢٣٠ هـ لأنه كان من أوائل الذين ألفوا في السير والمغازي والرجال ، فجرى في الإسناد على طريقة أهل الحديث ، ونجد ذلك في كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ ، ونجده في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، ونجده في كتاب « المنتظم » لابن الجوزي ، وفي « تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » للذهبي « ٧٤٨ هـ » وغيرها مما لا سبيل إلى حصره . ولكن المؤرخ ابن خلكان لم يجر في « وفيات الأعيان » على طريقة الإسناد هذه ، لأن صفة أهل الحديث وطريقتهم لم تغلب عليه كما غلبت على الطبري المؤرخ ، الذي ازدحم كتابه بأسماء رجال السند إلى حد يكاد يضل معه الباحث .

بقي من مصادر الترجمة أن نشير إلى مصدر يعول عليه كثيراً في تقييد العلوم والأخبار والآثار والمعارف البشرية عامة ، وهو مصدر الكتب التي ألفت في الموضوع الذي يكتب فيه المصنف ، فمترجم طبقات المحدثين والرواة محتاج إلى أن يطلع على كل ما كتب قبله في هذا الباب ، حتى لا يفوته شيء مما كتبه الأوائل . وبديهي أن أوائل المؤلفين في الإسلام اعتمدوا على الروايات لا غير ، لأن العلم لم يكن مدوناً حينذاك ، وإنما كان محفوظاً في الصدور ينقله راو عن راو . وأخذت الحاجة إلى الاستعانة بالكتب مراجع ومصادر تزداد وتتسع تبعاً لتقدم الزمن وكثرة المصنفات في الموضوع الواحد . وصار كتاب التراجم والسير — كغيرهم من المؤلفين — لا يجدون حرجاً في أن يشيروا إلى مصادرهم في مقدمات كتبهم أو في أي موضع آخر من الكتاب . والغالب أن مصادر الترجمة كانت تذكر في المقدمة ، ولكن ابن خلكان لم يذكر لنا في مقدمة « وفيات الأعيان »

أسماء الكتب التى أخذ عنها ، واستقى منها ، وإنما اكتفى أن يقول : « فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده فى كتاب » .

أما ياقوت الحموى « ٦٢٦ هـ » فقد اعتنى بذكر مصادره فى مقدمة كتابه « معجم الأدباء » ، كما ذكر طائفة من كتب التراجم وطبقات النحاة لم تقع له . وهو يصرح عند كل كتاب أفاد منه ورجع إليه بأنه « نقل فوائده إلى كتابه » ، ولم يكتف ياقوت بذكر المراجع والمصادر ، بل وقف منها موقف الناقد الصيرفى ، يكشف عن أقدارها ، ويبين قيمتها ، فيقول عن كتاب « شجرة الذهب ، فى أخبار أهل الأدب » لعلى بن فضال المجاشعى : « وقع إلىّ منه شىء ، فوجدته كثير التراجم ، إلا أنه قليل الفائدة ، لكونه لا يعتنى بالأخبار ، ولا يعبأ بالوفيات والأعمار » ، ثم يقول عن كتاب « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدى « ٣٧٩ هـ » : « ثم جمع فى ذلك أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلى الزبيدى كتاباً لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائد ، وأكثرها تراجم وفرائد ، وقد نقلنا فوائده أيضاً إلى هذا الكتاب » .

ولقد صرح ابن حجر العسقلانى مؤرخ مصر فى القرن التاسع بأسماء الكتب التى استمد منها كتابه « الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة » ، ومنها « أعيان النصر » للصفدى ، و « مجانى العصر » لأبى حيان ، و « ذهبية العصر » لابن فضل الله العمرى ، و « الخطط » للمقريزى ، و « الإحاطة » للوزير الأندلسى لسان الدين بن الخطيب ، و « تاريخ ابن خلدون » وغيرها . ومن هذه المراجع ما لا يزال مخطوطاً إلى اليوم .

وممن ذكروا مصادرهم فى صدور كتبهم المؤرخ شمس الدين الذهبى ، فقد قال فى المقدمة إنه طالع من الكتب على مؤلفه مصنفات كثيرة ، سرد منها

نحواً من أربعين كتاباً من أمهات كتب التاريخ والسير والطبقات ، وأكثرها مخطوط أو لا وجود له اليوم .

ولما رغب نجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠٦١ هـ فى كتابة تراجم لرجال المائة العاشرة لم يصادف أمامه إلا قلة من الكتب لا تفى بحاجة ولا تسد النقص ، وأغلبها لم يصل فى تاريخ رجال القرن العاشر إلا إلى نصفه ، فاعتمد على ما نقله من خطوط المشايخ أو خط من يوثق به من العلماء ، واستند إلى ما تلقاه من الأفواه ، وأخذه بالسماع حتى كملت له مادة كتابه « الكواكب السائرة ، بأعيان المائة العاشرة » .

ولقد عدل القفطى المؤرخ وصاحب التراجم « توفى سنة ٦٤٦ هـ » عن طريقة ذكر المصادر والمراجع فى مقدمة الكتاب إلى متن الكتاب نفسه ، وهى طريقة أخرى لتسجيل المصادر . ففى خلال الترجمة لعالم لغوى أو أديب يقول مثلا : « وقال الزبيدى »، ثم يسوق النص الذى نقله عن كتاب طبقات النحويين للزبيدى ؛ أو يقول مثلا : « وقال محمد بن إسحاق النديم فى كتابه » ويقصد كتاب « الفهرست لابن النديم » ؛ أو يقول : « وذكره أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى فى كتابه » ويقصد كتابه « المقتبس فى أخبار النحويين واللغويين »

وقد جرت عادة كتاب التراجم والسير فى زماننا هذا أن يذكروا ثبتاً خاصاً بأسماء المصادر والمراجع فى مفتتح الكتاب أو فى خاتمته ، فإذا ما عرض فى صلب الكتاب ذكر لحادثة تستحق الإشارة إلى مأخذها ذكروه فى هامش الكتاب ، حتى تكون الحادثة أو الواقعة ألصق بمظنتها ، وأقرب إلى مصدرها .

على أن هناك بعض الآثار المادية والمخلفات التى قد تعين المترجم وكاتب السيرة على الترجمة أو على جلاء الشخصية التى يريد الكتابة عنها ، أو على تصحيح بعض الأفكار عنها . وتلعب « الرسائل الخاصة » دوراً كبيراً فى هذا ، كما فى

رسائل الآنسة مى زيادة التى نشرت فى بيروت سنة ١٩٥١ ، وهى تلقى ضوءاً على بعض النواحى العاطفية من حياة تلك الأديبة العربية الكبيرة .

ترتيب الأعلام المترجمة

إذا استعرضنا كتب التراجم والطبقات فى الأدب العربى رأيناها لا تجرى فى ترتيب الأعلام على نهج واحد ، فكل مؤلف يختار الطريقة التى يجدها أوفى بالغرض ، وأسهل فى التناول ، وأدل على القصد بأدنى جهد .

وقد جرى أكثرهم على ترتيب الأعلام حسب حروف المعجم ، كما صنع ابن خلكان فى « الوفيات » ، وياقوت فى « معجم الأدباء » ، وابن حجر العسقلانى فى « الدرر الكامنة » و « الإصابة » ، والسخاوى فى « الضوء اللامع » ، ونجم الدين الغزى فى « الكواكب السائرة » ، والقفطى فى « إنباه الرواة » .

ولكن الذين اتبعوا طريقة الترتيب المعجمى للأعلام لم يجروا على خطة واحدة أيضاً ، فبعضهم راعى الترتيب الهجائى عامة فى جميع الأعلام ، كما صنع ابن خلكان فى « الوفيات » وياقوت الرومى فى « معجم الأدباء » . وبعضهم بدأ بذكر أسماء المحمدين تيمناً بالاسم النبوى الكريم ، ثم راعى بعد ذلك الترتيب الهجائى . وبعضهم بدأ بالمحمدين أولا ، فالأحمدين ثانياً ، ثم أتبع ذلك بذكر من اسمه إبراهيم ، وبعد ذلك جرى على ترتيب حروف المعجم .

وممن بدأ بالمحمدين الخطيب البغدادي صاحب كتاب « تاريخ بغداد » ، والسيوطى صاحب كتاب « بغية الوعاة ، فى طبقات النحاة » ، والنووى صاحب كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » ، والغزي صاحب « الكواكب السائرة » ، وصلاح الدين الصفدى صاحب « الوافى بالوفيات » الذى طبعت منه إلى الآن ثلاثة أجزاء لا غير ، بعناية المستشرق : س ، ديدرنغ .

وفى طريقة الترتيب بالأعلام حسب حروف المعجم صعوبة يصادفها

المترددون كثيراً على المراجع العربية ، فإن الأعلام المترجمة مرتبة بحسب الأسماء لا بحسب شهرة أصحابها أو كناهم ، فلا بد لطالب الكشف عن ترجمة أن يكون عالماً بالاسم الأول للمترجم ،ولا تنفع معرفته بالشهرة أو الكنية أو اللقب ، لأنها لم تدخل فى حساب كتاب التراجم .

وهل يخطر على بال الباحث أو الطالب أن الشاعر « الشاب الظريف » يبحث عنه فى مادة محمد لأن اسمه محمد بن سليمان ؟ وأن السيوطى المؤرخ يكشف عنه فى حرف العين لأن اسمه عبد الرحمن بن أبى بكر ؟ وأن المقريزى المؤرخ المشهور يبحث عنه فى حرف الهمزة لأن اسمه أحمد بن على ؟ وأن أبا نعيم الأصفهانى صاحب « حلية الأولياء » يبحث عنه فى مادة أحمد ؟ وأن الإمام الشافعى رضى الله عنه يبحث عنه فى حرف الميم لأن اسمه محمد بن إدريس ؟ وأن « القاضى الفاضل » إمام الترسل فى مصر فى القرن السادس يبحث عنه فى حرف العين لأن اسمه عبد الرحيم ؟

الحق أنها صعوبة تضيع كثيراً من الجهد والوقت فى البحث عن ترجمة علم معين ، إلا إذا ذللتها معرفة وثيقة بالرجال ، وكثرة الترداد على كتب المراجع والتراجم ، أو الرجوع إلى معجم « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلى من أدباء عصرنا وشعرائه ، فإنه يذكر العلم بشهرته أو لقبه فى بابه من حروف الهجاء ثم يحيل على الاسم الحقيقى الذى تجىء الترجمة تحته . ففى البحث عن « الحصرى » مثلا يجىء به فى حرف الحاء والصاد — وهو ترتيبه بحسب الشهرة — ثم يحيلك على الترجمة فى موضعها فيقول : انظر : إبراهيم بن على . وفى البحث عن الثعالبى اللغوى يجىء به فى حرف الثاء والعين ، ثم يحيلك على ترجمته فى موضعها فيقول : انظر عبد الملك بن محمد .

وهكذا ذلل معجم « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلى صعوبة طالما شكا منها الباحثون فى كتب التراجم وتاريخ الرجال .

وهناك من كتاب التراجم من ترك طريقة ترتيب الأسماء حسب الحروف إلى طريقة الترتيب حسب سنى الوفاة ، كما صنع ابن رجب المتوفى سنة ٧٩٥ هـ فى ذيله على طبقات الحنابلة ، وقد بدأ فيه بتراجم وفيات المائة الخامسة من سنة ٤٦٠ هـ إلى ٥٠٠ هـ . واختار سنة ٤٦٠ هـ بداية للوفيات لأنها السنة التى انتهى عندها ابن أبى يعلى الفراء المتوفى سنة ٥٢٦ هـ فى كتابه « طبقات الحنابلة » ، ومن هنا كان كتاب ابن رجب ذيلا على كتاب ابن أبى يعلى . وبالطبع اختفت المعجمية فى كتاب ابن رجب ما دام الترتيب على وفق سنى الوفاة . إلا أنه راعى الترتيب المعجمى أحياناً فى ذكر وفيات كل سنة ، وإن كان لم يجر فى ذلك على نهج واضح موحد ، كما أنه لم يجر فى ترتيب السنين على التسلسل أحياناً ، ففى سنة ٤٨٨ هـ وبعد أن فرغ من ذكر وفياتها ، وانتقل إلى وفيات ما بعدها من السنين ، عاد ثانية إلى وفيات سنة ٤٨٨ هـ . ولعل الذنب فى هذا ذنب الذى نسخ له كتابه ، فلم تجئ وفيات سنة ٤٨٨ هـ فى موضعها جملة واحدة .

ولعل أجدر ما يصح به الاستشهاد من كتب التراجم على طريقة الترجمة حسب سنى الوفاة كتاب « شذرات الذهب ، فى أخبار من ذهب » لابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ، ففى آخر كل سنة هجرية من بداية السنة الأولى لهجرة الرسول عليه السلام إلى سنة ١٠٠٠ من الهجرة ، يذكر المؤلف أسماء من توفى فى تلك السنة من الأعلام والمشاهير فى كل فن وعلم ، لا يستثنى من ذلك خليفة ولا أميراً ولا وزيراً ولا قائداً ولا عاملا ولا قاضياً ولا راوياً ولا فقيهاً ولا أديباً ولا شاعراً ولا ذا شأن فى التاريخ الإسلامى خلال ألف عام . وقد يذكر تواريخ ميلاد أصحاب الوفيات ، ثم يترجم لهم تراجم أغلبها قصير موجز ، إلا أنه يذكر من أحوال المترجم لهم وآثارهم وأشعارهم وأخبارهم وأسماء مصنفاتهم ما يحمد ذكره فى مقام لا يتسع لتطويل ، ولا ينبسط لتفصيل .

ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب

إن كثيراً من أسماء الأعلام تتشابه فى الخط أو الحروف المتشابهة . كالجيم والحاء والخاء ، والدال والذال ، والسين والشين ، فإذا أهمل أو نسى نقط هذه الحروف فإن الأمر يختلط على القارئ فلا يدرى إذا كانت حقيقة العلم « مزاحم » أو « مراجم »، و « مسهر » أو « مشهر »، و « نصير » أو « نضير » ، وقد سمى فعلا بهذه الأسماء واشتهر منها جماعة ، فما السبيل إلى تحقيق هذا ؟

وقد يتحد الاسمان فى الحروف تماماً ولكن الضبط بالشكل يختلف فى واحد عنه فى الآخر ، فهناك « عمارة » بضم العين و « عمارة » بكسرها ، وهناك « عتيق » بفتح العين ، و « عتيق » بضمها على صيغة التصغير ؛ وهناك « عقيل » بفتح العين ، و « عقيل » بضمها ، وهناك مئات من الأعلام على هذا النحو الذى لا بد له من ضابط يضبطه . فما السبيل إلى تحقيق هذا ؟

وهناك أسماء أعلام لا يستقيم النطق بها صحيحة إلا إذا ضبطت بالشكل أو بالحركات مثل القاضى « ابن مماتى » الوزير المصرى فى عهد الأيوبيين ، ومثل « ابن حَمّْوية » الدمشقى من رجال القرن السابع الهجرى ، ومثل « ابن راهَويه » أو « راهُويه » أحد الأئمة الحفاظ فى القرن الثالث الهجرى ، ومثل الأديب اللغوى « ابن السيد البطَلْيوْسى » شارح كتاب « أدب الكتاب » والمتوفى سنة ٥٢١ هـ ، وغير هذه الأسماء التى لا بد من ضبطها فى كتب السير والتراجم والتاريخ حتى ينطق بها على وجه صحيح .

إن المؤلفين المسلمين لم يسكتوا أمام هذه المشكلة التى كادت تحدث لبساً كبيراً وخلطاً فاحشاً بين الأعلام ، فنصبوا همهم لتحقيقها وضبطها وتوضيح الفروق بينها فى كتب خاصة قائمة بذاتها ، تكون مرجعاً للتحقيق والضبط .

ومن أوائل المؤلفين فى هذا الباب الذى يدخل فى كتب التراجم من أوسع

أبوابه الإمام الحسن بن بشر الآمدى « ٣٧٠ هـ » فقد صنف كتابه الجليل : « المؤتلف والمختلف » ليكون ضابطاً لأسماء الشعراء وكناهم وألقابهم ، وأضاف إليه بعض أخبارهم وأشعارهم . فتجد فيه من الشعراء من اسمه « الحصين » بالصاد المهملة ، و « الحضين » بالضاد المعجمة — المنقوطة — ومن الشعراء من اسمه « حباب » مثل حباب بن عمار القائل :

يا نصر إنك لو أبصرت مشهدنا أيقنت أن إلينا ينتهى الكرمُ
نمشى إلى الموت مشياً فيه خطرفة فى باحة الموت حتى تنجلى الظلم

ومنهم من اسمه « خباب » بالخاء المعجمة مثل خباب بن عدى الشاعر الفارس القائل :

وأرمى بنفسى فى فروج كثيرة وليس لأمر حمَّه اللهُ صارفُ

والحق أن كتاب الآمدى هذا هو معجم نفيس لتراجم الشعراء حتى القرن الرابع الهجرى ، وضبط أسمائهم وذكر المتشابه منها مثل امرئ القيس بن حجر الكندى الذى نعرفه جميعاً بمعلقته التى أولها : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، ومثل امرئ القيس بن عابس بن المنذر الذى أدرك الإسلام ووفد على النبى عليه السلام وأسلم ، ولم يرتد فى أيام الخليفة أبى بكر ، وباهى بذلك قائلا :

فلست مبدلا بالله ربا ولا متبــدلا بالسلم دينــا

ومثل امرئ القيس بن بكر المعروف بالذائد . وقد عد لنا الآمدى تسعة من هؤلاء المراقسة وترجم لهم فى إيجاز ، ونسبهم إلى قبائلهم وذكر بعض شعرهم .

ومن الكتب النافعة فى ضبط الأعلام وتحقيق مؤتلفها ومختلفها ، وتبيين ما يقع اللبس فيه منها ، كتاب « المؤتلف والمختلف » للحافظ عبد الغنى بن سعيد شيخ

حفاظ الحديث النبوى بمصر فى عصره « توفى سنة ٤٠٩ هـ » . وقد أعانته معرفته الواسعة بالأنساب على أن يضبط التراجم ضبطاً دقيقاً عول عليه أكثر علماء الحديث والإسناد والطبقات الذين جاءوا بعده .

وقد جعل عبد الغنى بن سعيد كتابه فى أسماء نقلة الحديث ورواته كما صنع الآمدى من قبله فى أسماء الشعراء .

والحق أن هذه الخطوة فى ضبط أسماء المحدثين وتبيين مؤتلفها ومختلفها كانت لا مفر منها بعد أن كثر الرواة وتعددت الأسماء ، ووقع فيها من مظنة الوهم واللبس والاشتباه ما لا يؤمن معه الزلل .

فكان كتاب ابن سعيد بعد كتاب « المختلف والمؤتلف » للدارقطنى المتوفى سنة ٣٨٥هـ امتداداً لطريقة علماء الحديث فى ضبط أسماء المحدثين وتحقيقها إزالة لما قد يتسرب إليها من اللبس والإبهام .

والحق أن العمل الذى قام به عبد الغنى بن سعيد كان مما لا يقدر عليه إلا رجل مثله عالم بالأنساب ، خبير بالطبقات ، واسع المعرفة بالرجال . ولعل بعض النماذج من كتابه تصور لنا قيمة الجهد الذى بذله . فهو يقول فى هذه الأسماء المتشابهة فى الرسم : عيشون وعيسون وعبسون : « أما عيشون فهو عبد الله ابن عيشون الحرانى ، ومحمد بن عيشون . وأما عيسون فهو عبد الحميد بن أحمد بن عيسى ، هذا يعرف بعيسون ، ومحمد بن عيسون الأنماطى . وأما عبسون ، فهو محمد بن أحمد بن عبسون البغدادى » .

ويقول فى هذه الأسماء المتشابهة : عباس ، وعياش ، وعياس ، وعناس : « فأما عباس فكثير ، وأما عياش فجماعة ، منهم عياش بن أبى ربيعة ، وأما عياس بالياء المثناة من تحت والسين المهملة ، فهو أبو العياس ، يروى عن سعيد ابن المسيب ، وأما عناس بالنون والسين المهملة ، فهو عناس بن خليفة » .

وقد دخل اللبس إلى الأعجام العربية من ناحية تشابه الحروف من جهة

كالحاء والخاء ، ومن ناحية نقط الحروف وإهمالها كالفاء بنقطة واحدة، والقاف بنقطتين من جهة ثانية ، ومن ناحية الرسم الإملائى من جهة ثالثة . فإن سفيان كان يكتب من دون ألف هكذا : سفين ، ومعاوية كان يكتب من دون ألف هكذا : معوية ، وقد يقرؤها القارئ معْوية ، فإذا ما أعجمت العين صارت مغوية. وكثيراً ما اشتبه على رجال الحديث اسم معاوية ومغوية ، أما الأول فمعروف ومنه الخليفة الأموى الأول ، وأما الثانى فهو بالغين المعجمة ، وكان اسمه قبل الإسلام عبد العزى أبو مغوية ، فلما وفد على النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ما اسمك؟ قال : عبد العزى . قال : أبو من ؟ قال : أبو مغوية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا ! ولكنك عبد الرحمن أبو راشد . وهكذا أحاله النبى عليه السلام من عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الرحمن ، ونقله من الإغواء إلى سبيل الرشاد .

وبعد وفاة عبد الغنى بن سعيد ببضعة عقود من السنين جاء الخطيب البغدادى صاحب « تاريخ بغداد » الذى أشرنا إليه غير مرة فألف كتاباً أسماه : « تلخيص المتشابه فى الرسم ، وحماية ما أشكل منه عن نوادر التصحيف والوهم » وهو كتاب ضخم ذكر المالكى أنه فى ستة عشر جزءاً ، وقال عنه ابن الصلاح إنه من أحسن كتبه ، وهو مخطوط ذكر منه المستشرق بروكلمان ثلاث نسخ ، وأشار جورجى زيدان إلى أن منه نسخة فى دار الكتب المصرية فى ٧٠٠ صفحة وفى آخرها نقص. وموضوع الكتاب فى جملته لا يخرج عن كتاب ابن سعيد ، من حيث تمييز الأسماء التى تشابهت فى رسمها ، واختلفت فى تهجيتها ونطقها.

وفى ذلك القرن بالذات — أى القرن الخامس — ظهر كتاب « الإكمال ، فى رفع الارتياب ، عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى والألقاب » لابن ماكولا المتوفى سنة ٤٨٦ هـ وكتاب « تقييد المهمل وتمييز المشكل » لأبى على الجيانى الأندلسى المتوفى سنة ٤٩٨ هـ وكان من أئمة الحديث فى الأندلس . وعنوانا

الكتابين يدلان دلالة واضحة على موضوعيهما ، فهما لا يخرجان عما نحن فيه من تبيين الفروق بين الصور المختلفة لرسم الأسماء، وما قد ينجم عن ذلك من اختلاف نطقها .

وهناك قامت مشكلة أخرى فى الأسماء المترجم لها ، فقد يتفق اثنان أو أكثر فى اسم واحد أو فى كنية واحدة أو لقب واحد تمام الاتفاق ، فلا بد من التمييز بينها ، وعدم الخلط فيها ، والترجمة لهذا على أنه ذاك . حتى لا يقع الالتباس . فمن الناس من يخلط بين الحسن بن عبد الله العسكرى « أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٥٩ هـ » صاحب كتابى « الصناعتين » و « ديوان المعانى » وغيرهما ، وبين الحسن بن عبد الله العسكرى« أبو أحمد العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢هـ وأستاذ أبى هلال » . ولقد جمعت بين الاثنين مشابهة الاسم نفسه واسم الأب والنسب والمعاصرة . ولكن لا بد من التمييز بالكنية، فصاحب «الصناعتين » هو أبو هلال، والثانى هو أستاذه « أبو أحمد » صاحب كتاب « التصحيف والتحريف » .

وفى المثل السابق رأينا الشخصين يتفقان فى الاسم والنسبة ويختلفان فى الكنية. وفى هذا المثل الذى نسوقه نرى الشخصين يتفقان فى اسميهما واسمى أبيهما ولكنهما يختلفان فى النسبة، وهنا يجب الاحتراس أيضاً حتى لا يضاف إلى واحد منهما ما ليس لصاحبه . فهناك أحمد بن نصر المحدث الهمدانى المتوفى سنة ٣١٧ هـ ، وهناك أحمد بن نصر المحدث الداودى المتوفى سنة ٤٠٢ هـ .

وقد يحدث الاتفاق فى النسبة كثيراً من اللبس عند من لا يتحرون الدقة والتحقيق ، فيقع الخلط فى التراجم ، كما فى نسبة « الحصرى القيروانى » . فعندنا فى الأدب العربى رجلان اشتهرا بهذه النسبة ، ولكن يجب الحذر فى التفريق بينهما ، فأبو الحسن الحصرى كان أديباً فقيهاً عالماً بالقراءات وتوفى سنة ٤٨٨ هـ وهو صاحب قصيدة :

يا ليلُ الصب متى غدُه   أقيام الساعة موعده ؟
رقدَ السمار وأرقه   أسف للبين يردده

التى عارضها كثير من الشعراء القدامى والمحدثين ، ومنهم الشاعر أحمد شوقى .

أما أبو إسحاق الحصرى القيروانى فهو صاحب كتاب « زهر الآداب » المشهور ، وقد كان معاصراً لأبى الحسن الحصرى وتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ومن هذه المشكلة قامت حاجة المؤرخين وكتاب التراجم إلى تأليف كتب فى الأسماء المتشابهة ، والألقاب المتشابهة ، والكنى المتشابهة ، للتفريق بينها والتعريف بكل واحد منها تعريفاً يطول أو يقصر كما يقتضيه المقام .

ولعل كتاب « المؤتلف والمختلف » للآمدى الذى أشرنا إليه قبلا كان من الخطوات الأولى فى هذا السبيل ، فهو لا يصحح الأسماء التى قد يطرأ عليها التصحيف والتحريف فحسب ، مثل البعيث ، والنعيت ، ومثل الشاعر بجير والشاعر بحير ، ومثل الشاعر بشر والشاعر بسر ، ولكنه يترجم لنا الأسماء المتشابهة فى غير تصحيف مثل أبو الغول الطهوى ، وأبو الغول النهشلى ، ومثل بشامة بن الغدير ، وحسان بن الغدير ، ومثل الشاعر كثير صاحب عزة ، والشاعر كثير صاحب ليلى الذى يقول فيها :

تصدت لنا ليلى ضراراً تعمدا   لنزداد شوقاً بعد طول ضمان
فهاضت فؤادا كان يرجى اندماله   على عنت قد كان منذ زمان

ولقد جرى المؤرخ شمس الدين الذهبى « ٧٤٨هـ » فى هذا المضمار ، فألف كتاب « المشتبه فى الأسماء والأنساب » ، وقد ترجم فيه لكثير من الرجال والنساء الذين تشابهت أسماؤهم أو أنسابهم أو كناهم .

ولما كانت أغلب أسماء الأعلام فى التاريخ الإسلامى منسوبة إلى البلدان أو

القبائل أو الحرف والمهن كالصناعة والزراعة والتجارة . فقد قام بعض كتاب التراجم المسلمين برد هذه الأنساب إلى أصولها . وأول من تنبه إلى ذلك عبد الكريم السمعانى المؤرخ المحدث المتوفى سنة ٥٦٢ هـ فألف كتابه « الأنساب » وقد رتب الأسماء فيه ترتيباً معجمياً على الألقاب والأنساب كالآمدى ؛ والإصطخرى ، والأوزاعى ، واليافعى ، والبطليوسى ، والتوحيدى ، والجرمى ، والحليمى ، والحميدى ، والخوارزمى ، والخولانى وهكذا ، فإذا اشترك فى اللقب اثنان أو أكثر ذكرهم جميعاً وفرق بينهم وترجم لكل منهم مع ذكر تواريخ الميلاد والوفاة . وقد زاد عدد التراجم فى هذا الكتاب على أربعة آلاف ترجمة ، وفيهم كثير من رواة الحديث .

وقد طبع هذا الكتاب فى مجموعة « جب التذكارية » بطريقة الفوتوتيب لا بطريقة الحروف ، مما لا يجعل الانتفاع به يسيراً ، ولا الحصول عليه ممكناً ، على الرغم من شدة الحاجة إليه ، وعدم غناء المؤرخين والأدباء والباحثين عنه .

وقد هذب المؤرخ عزالدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ هذا الكتاب الثمين وأسماه : « اللباب ، فى تهذيب الأنساب » (١) ، وهو معجم مسعف لمن يريد البحث عن أعلام المسلمين حتى القرن السادس ، وقد أشار فى مقدمته إلى ما صنعه فى التهذيب ، وأشاد بفضل السمعانى لتحمله « العبء الثقيل فيه ، وجمع الأشتات المتفرقة إليه ، والتعب فى جمعه وتصنيفه » ، ولم ينس أن يشير إلى تعبه هو أيضاً فى تهذيبه « فلى فيه أيضاً تعب الاختيار ، وجودة الترتيب ، والبحث عن الحق ليعلم » .

ولن يفوتنا هنا — ونحن فى سبيل الحديث عن ضبط أعلام التراجم — أن نشير إلى الجهد الذى بذله المؤرخ ابن خلكان فى كتاب « وفيات الأعيان » فى تقييد الأسماء وضبطها بالحركات والحروف وضبط الحروف المتشابهة كالسين والشين ، والعين والغين وهلم جرا ، فقد سد بذلك العمل سبيلا إلى دخول الوهم والتصحيف على

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً ، وتم طبعه كاملا بعناية السيد حسام الدين القدسى .

الأعلام الإسلامية التي ترجمها في كتابه ، ولم يكتف بذلك الضبط في أعلام الرجال ، بل صنعه في أسماء البلاد والأماكن ، فيقول مثلا في ترجمة أبي سليمان البستي الأديب الفقيه المحدث : « والبستي بضم الباء الموحدة ، وسكون السين المهملة ، وبعدها تاء مثناة من فوقها . هذه التسمية نسبة إلى بست ، وهي مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة ، كثيرة الأشجار والأنهار » . وقد صنع هذا في الأعيان الثمانمائة فأكثر التي ترجم لها تراجم دقيقة ، في كتابه الذي كان موضع التقدير عند العرب والمستشرقين والمستعربين على حد سواء .

تلخيص كتب التراجم وتذييلها

كثيراً ما نصادف في ميدان التراجم الإسلامية كتباً كثيرة تلخص كتباً سابقة أو تهذبها أو تذيل عليها امتداداً لعصر أو استكمالا لزمن ، أو استدراكاً لفوات . ولو أخذنا نعد هذه الملخصات والتهذيبات والتذييلات لطال بنا مجال القول إلى ذكر قائمة طويلة من أسماء الكتب والمؤلفين مما قد يكون هذا الكتاب الوجيز غير موضعه . إلا أننا لن نجد بدًّا من الإشارة إلى بعض الكتب في كل نوع على سبيل التمثيل لها والاستشهاد بها .

فنرى كتاباً مثل « وفيات الأعيان » لابن خلكان يختصره جماعة من الرجال منهم ابنه موسى ، وابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ . ونرى كتاب ابن عساكر في تاريخ دمشق وتراجم أعيانها يختصره ابن منظور الأفريقي صاحب « لسان العرب » المتوفى سنة ٧١١ هـ ، ونرى الإمام الذهبي المؤرخ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ يختصر كتاب « إنباه الرواة ، على أنباه النحاة » للقفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ، ونرى كتاب « رفع الإصر ، عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ يختصره جمال الدين بن شاهين في كتاب اسمه « النجوم الزاهرة ، بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة » وهو مخطوط في برلين ، ومفهوم بالطبع أنه

غير كتاب «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٨٧٤هـ.

وقد يتولى المؤلف نفسه تلخيص كتابه ، كما صنع ابن تغرى بردى ، فقد قام هو نفسه بتلخيص كتابه : « النجوم الزاهرة » ، وأسماه « الكواكب الباهرة، من النجوم الزاهرة » ولا يعرف مكان وجود هذا المخطوط ؛ وكما صنع ابن تغرى بردى أيضاً فى كتابه الواسع فى التراجم الموسوم باسم « المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى » فقد اختصره فى كتاب سماه : « الدليل الشافى ، على المنهل الصافى » ؛ وكما صنع برهان الدين البقاعى المؤرخ المتوفى سنة ٨٨٥ هـ فى كتابه : « عنوان الزمان ، فى تراجم الشيوخ والأقران » الذى جمع فيه تراجم شيوخه وأساتذته وتلاميذه ومعاصريه من العلماء ، فقد اختصره هو بنفسه فى كتاب أسماه « عنوان العنوان».

وقد يكون الدافع إلى تلخيص كتب التراجم والسير جعلها أيسر فى التناول وأقرب إلى التداول ، فإن كثيراً من الناس يفرون من المطولات إلى المختصرات ، ويلجأون من المبسوطات إلى الملخصات . وقد يكون هنا من الدوافع — غير الاختصار — التهذيبُ أو حذفُ الأسانيد ، أو حذف ما لا حاجة إلى ذكره من أحوال الأشخاص ، كما صنع المؤرخ الكبير عز الدين بن الأثير « ٦٣٠هـ» حين هذب كتاب « الأنساب » للسمعانى وسماه « اللباب ، فى تهذيب الأنساب». ومن كتب التراجم والأدب التى هذبت بحذف الإسناد منها كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، فقد هذبه المرحوم الشيخ محمد الخضرى من أهل زماننا ، وحذف أسانيده وعنعناته الكثيرة ، وأبقى فيه أخبار الشعراء المترجمين وأشعارهم بغير إسناد .

والحق أن مسألة ذكر السند إذا كانت واجبة فى كتب الحديث والمحدثين ، وإذا كان بعض المؤرخين كالإمام الطبرى المؤرخ المحدث المفسر « توفى سنة ٣١٠ هـ » قد استعملها فى تاريخه الكبير جرياً على طريقة أهل الحديث الذين كان هو واحداً منهم ، فإنها فى كتب الأدب لا داعى لها ، وهى فى تراجم الأدباء

والشعراء وطبقاتهم لا تدعو إليها ضرورة مقتضية ، ولا حـاجة ملحـة .
وأين الحاجة الملحة فى أن يذكر هذا الإسناد فى مثل الخبر الأدبى التالى فى ترجمة الأعشى الشاعر الجاهلى : « أخبرنى الحسن بن على ، قال : حدثنا ابن مهرويه ، عن ابن أبى سعد ، قال : ذكر الهيثم بن عدى ، أن حماداً الراوية سئل عن أشعر العرب ، قال : الذى يقول :

نازعتهم قضب الريحان متكئاً وقهوة مزةً راووقها خضل » ؟ ؟

وهل يحتاج مثل هذا الحكم الأدبى الموجز السريع إلى مثل هذه السلسلة من السند فى الرواية ؟

وأين الضرورة المقتضية فى أن يذكر الإسناد الآتى ، فى مثل الخبر الأدبى التالى، فى ترجمة الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن مسعود : « أخبرنى محمد بن خلف وكيع ، قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثنا أبى ، قال : حدثنا يونس بن محمد ، قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن معمر ، عن الزهرى ، قال : كان عبيد الله بن عبد الله يلطف لابن عباس ، فكان يعزه عزاً » ؟ ؟

ألا تزيد ألفاظ الإسناد هنا وهناك على ألفاظ الخبر نفسه ؟

وَهب قدرَ عبارة الإسناد لا يزيد على الخبر نفسه بل يقل عنه ، أفلا يكون طول سلسلة السند داعياً إلى الملل ، كما فى رواية أبى الفرج الأصبهانى لوفود الشعراء كثير والأحوص ونصيب على الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ؟ ولعل الاستشهاد هنا يكون أدل على القضية ، فاسمع إسناد هذا الخبر كما رواه مؤلف « الأغانى » قال : « أخبرنى محمد بن خلف وكيع ، قال : أخبرنى عبد الله بن دينار مولى بنى نصر بن معاوية ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن التيمى ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن سهيل ، عن حماد الراوية ، وأخبرنى محمد بن حسين الكندى خطيب القادسية ، قال : حدثنا الرياشى ، قال : حدثنا شيبان بن

مالك ، قال : حدثنا عبد الله بن إسماعيل الجحدرى ، عن حماد الراوية » .

فنحن هنا أمام سند لحادثة واحدة بروايتين عن طريقين . ولكن السند قد طال ، بما قد لا يؤمن معه الملال .

المعاصرة وأثرها فى كتابة التراجم

قد تكون المعاصرة من أسباب الحكم الصحيح على المترجم لهم ، لأن وجود كاتب السيرة أو الترجمة فى عصر الذى يريد أن يترجم له يكون أدعى إلى الإحاطة بكثير من نواحيه ، والإلمام بكثير من أطراف سيرته ، مما لا يتيحه البعد فى الزمن والتطاول فى المدى . وإن كان البعد عن عصر المترجم له يتيح للكاتب المؤرخ أن يراه واضحاً غير مشوب بضباب المعاصرة الذى قد يغير معالم الصورة . ومثل ذلك كالصورة الزيتية ، تراها على البعد أحسن مما تراها وأنت دان منها ، أو محدق إليها ، أو مدقق النظر فيها .

والحق أن المعاصرة فى التراجم قد تعين على جمع مواد الترجمة أكثر مما يستطيع الزمن المتطاول أن يفعله . فإن سيرة للبطل المسلم صلاح الدين الأيوبى يستطيع معاصر له كابن شداد « توفى سنة ٦٣٢ هـ » أن يكتبها أصدق وأقرب إلى الحق مما لو كتبها مؤرخ بعد عصره . ولكن ألا يخشى أن تكون المعاصرة والقرب من المترجم له سبباً إلى المجاملة على حساب الحق ، والمحاباة على حساب التاريخ ؟

ولا شك أن السيرة التى كتبها الوزير لسان الدين بن الخطيب للسلطان محمد ملك غرناطة هى قطعة من أدب التراجم رائعة ، ولكن ذلك لا ينسينا الحقيقة الواقعة وهى أن ابن الخطيب الوزير كان يترجم لملك وسلطان أندلسى كان هو وزيره ، ونحن لا نتهم ابن الخطيب بالمحاباة أو مجافاة الحق أو الهوى ، ولكن يستحيل أن نصدق أنه كان يبيح لنفسه أن يكشف له ضعفاً ، أو ينشر له عيباً .

ويحضرنا مثال ناطق على مجاملة المؤرخين لرجال عصرهم رغباً أو رهباً .
فالمؤرخ الكبير أبو الحسن المسعودى « ٣٤٦ هـ » صاحب « مروج الذهب »
كان معاصراً للخليفة العباسى « القاهر » الذى بويع بالخلافة سنة ٣٢٠هـ ، ولكنه كان
حريصاً كل الحرص ، بل كان مخفياً لواقع التاريخ حين ذكر عن الخليفة القاهر
أنه « كان شهماً ، شديد البطش بأعدائه ، وأباد جماعة من أهل الدولة ، منهم
مؤنس الخادم ، وبليق ، وعلى بن بليق ، فهابه الناس » وسكت المؤرخ سكوتاً
تاماً مطبقاً عما فعله الخليفة بأم أخيه لأبيه وسلفه الخليفة المقتدر . نعم ! سكت
المسعودى إرضاء للقاهر أو خوفاً منه . ولم نستطع أن نعرف تعذيب القاهر لزوج
أبيه وأم أخيه إلا بعد أن تطاول الزمن ، وأمن المؤرخون أو المترجمون الصولة . فجاء
مؤرخ كابن كثير فى القرن الثامن « توفى سنة ٧٧٤ هـ » ، فوصف لنا ذلك الحادث
الوحشى الفظيع ، ونحن ندعه هنا يتكلم بعبارته : « واستدعى بأم المقتدر ، وهى
مريضة بالاستسقاء ، وقد تزايد بها الوجع من شدة جزعها على ولدها — يعنى
المقتدر — حين بلغها قتله ، وكيف بقى مكشوف العورة ، فبقيت أياماً لا تأكل
شيئاً ، ثم وعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح ، ومع هذا كله
استدعى بها القاهر ، فقررها على أموالها ، فذكرت له ما يكون للنساء من الحلى
والمصاغ والثياب ، ولم تقر بشىء من الأموال والجواهر ، وقالت له : لو كان
عندى من هذا شىء ما سلمت ولدى ، فأمر بضربها ، وعلقت برجليها ، ومسها
بعذاب شديد من العقوبة ، فأشهدت على نفسها ببيع أملاكها ، فأخذه الجند
مما يحاسبون به من أرزاقهم ، وأرادها على بيع أوقافها ، فامتنعت من ذلك وأبت
أشد الإباء » .

ومن سوءات المعاصرة فى كتابة التراجم والسير أن كاتب الترجمة قد تحمله
المجاملة إلى سياسة التبرير والتسويغ ولو بالباطل ، فهو يلتمس الأعذار الواهية
لأخطاء من يترجم لهم ، أو يكتب سيرهم ، وقد لا يكون لهذه الأعذار نصيب من

حق ، أو حظ من صحة . فالمؤرخ سبط ابن الجوزى [١] المتوفى سنة ٦٥٤ هـ يتلمس المعاذير لمظفر الدين بن زين الدين من أمراء إربل فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وقد كان مظفر الدين هذا كثير المصادرة والقتل لرجال ديوانه وكتابه، ويبرر مؤرخنا سبط ابن الجوزى هذا بقوله : « ولعله اطلع منهم على خيانات فرأى أخذ الأموال وإنفاقها فى أبواب البر والقربات أولى » .

وعلى الضد من ذلك قد تكون المعاصرة سبباً فى التشنيع والتشهير ، وذلك حينما تؤمن السطوة، وتتقى الصولة من الملوك والأمراء، ويقع التنافس بين النظراء والأقران، كما وقع بين السخاوى المؤرخ والسيوطى المؤرخ المعاصر له ، وقد أشرنا إلى ذلك قبلا . وكما وقع بين السخاوى وبين البقاعى من أقرانه ومؤرخى عصره ، فهو يغمزه حين يترجم له فى الجزء الأول من « الضوء اللامع » ويقول عنه فى أول الترجمة: « ودخل بيت المقدس ثم القاهرة للاستفتاء على أهلها ، وهو فى غاية من البؤس والقلة والعرى . . . » ويقول عنه بعد ذلك : « ووقائعه كثيرة ، وأحواله شهيرة ، ودعاويه مستفيضة ، أهلكه التيه والعجب ، وحب الشرف [٢] والسمعة ، بحيث زعم أنه قيم العصريين بكتاب الله وسنة رسوله . . . » ويمضى فيقول عنه : « مع رميه للناس بالقذف والفسق والكذب والجهل ، وذكر ألفاظ لا تصدر من عاقل، وأمور متناقضة ، وأفعال سيئة ، وحقد تام » .

وهل ننسى ونحن نؤرخ للتراجم والسير فى الأدب العربى ما صنعته المعاصرة والمنافسة بين أبى حيان التوحيدى والصاحب بن عباد من رجال القرن الرابع الهجرى ؟ لقد قدم أبو حيان على الصاحب بالرى وصحبه ، فلم يحمد صحبته ، ولم يحمد صحبة أبى الفضل بن العميد الأديب الوزير المشهور . ومن هنا كانت

(١) ليس هو عبد الرحمن بن الجوزى المؤرخ صاحب « المنتظم » و « صفة الصفوة » والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ وإنما هو ابن بنته ، واسمه يوسف بن قزأوغلى ، واشتهر بكتابه « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » الذى طبع لأول مرة فى العالم بالهند سنة ١٩٥١ .

(٢) الشرف هنا : معناه الجاه .

أقوال أبي حيان وأخباره عن الصاحب بن عباد موضع الأخذ بالحذر الشديد .

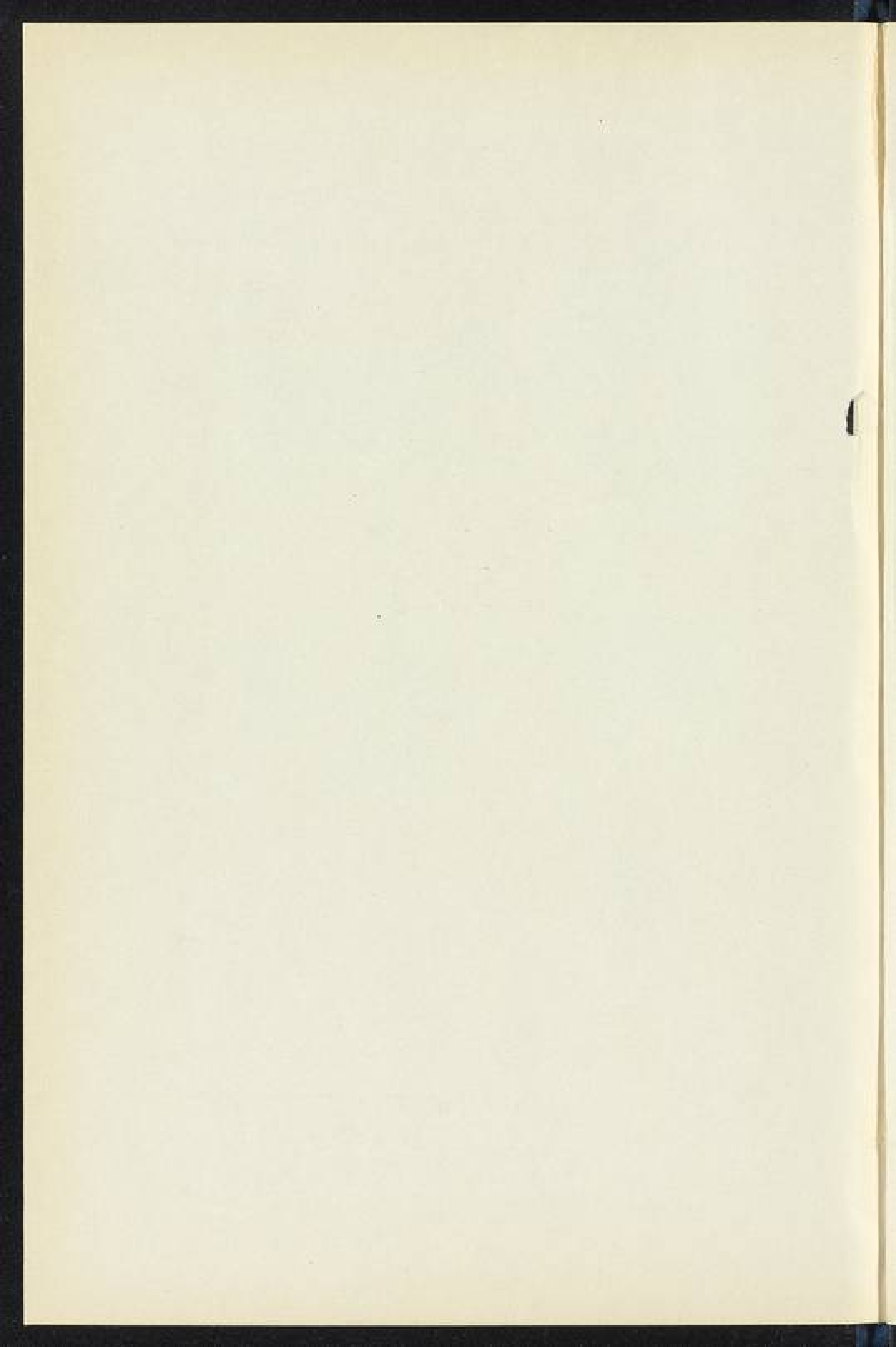
واللوحة التى رسم بها أبو حيان هذا الوزير الأديب الخطير تبعث على الحيرة حينما نجد لوحة أخرى مغايرة كل المغايرة بريشة كاتب آخر معاصر للصاحب ، وهو الثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » ؛ فأبو حيان يقول فى تصويره للصاحب بن عباد : « . . . والناس كلهم يحجمون عنه لجراءته وسلاطته ، واقتداره و بطشه ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذيء اللسان ، يعطى كثيراً قليلا ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة ، قريب الطيرة ، حسود حقود ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ، أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل خلقاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوة وبغياً ، وتجبراً وزهوا ، ومع هذا يخدعه الصبى ، ويخلبه الغبى » .

والثعالبى يقول فى تصويره له : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلالة شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه . ولكننى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق. وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ؛ وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه ..» .

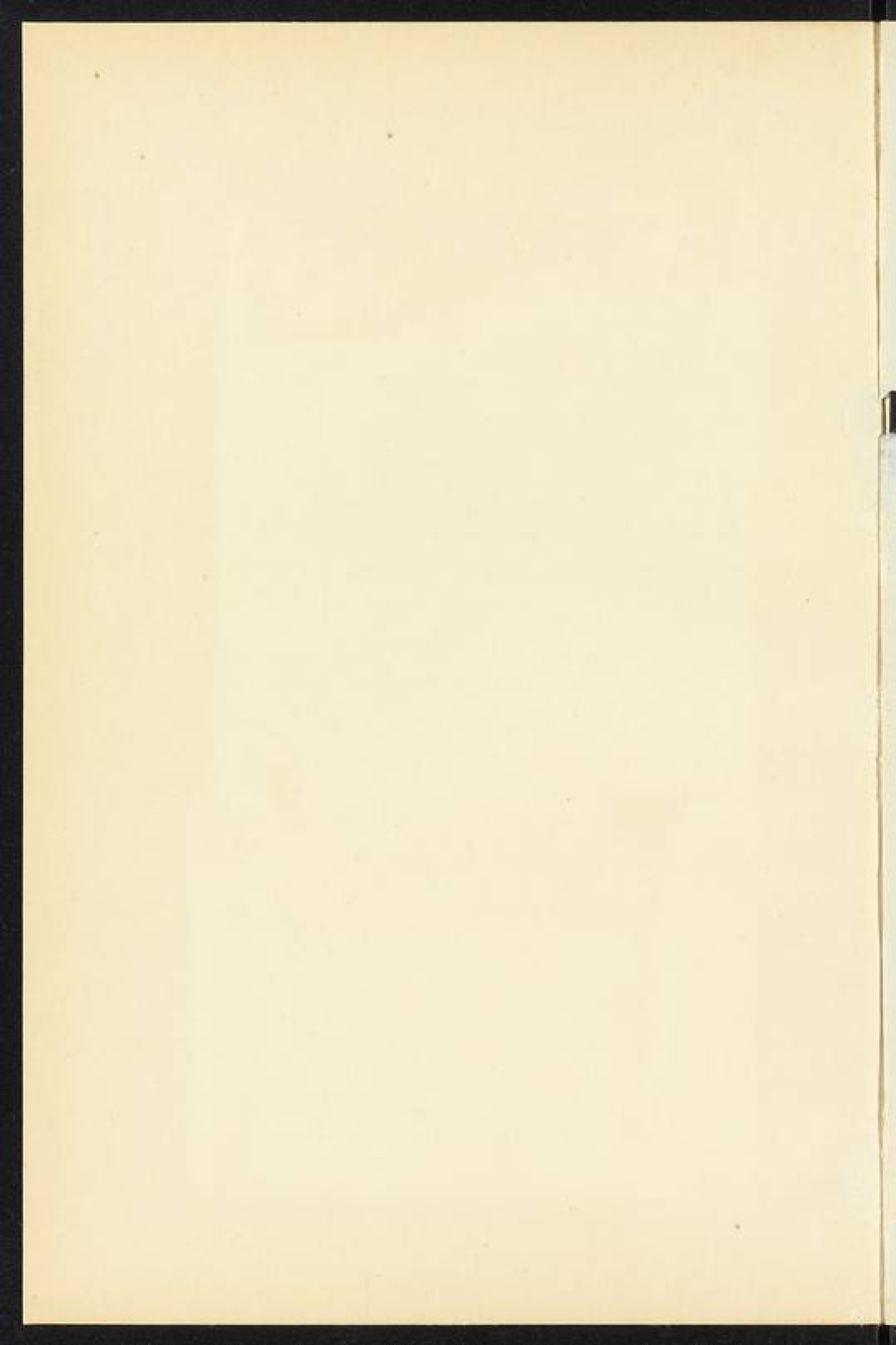
إن كاتب التراجم لا بد أن يكون على حذر شديد حينما يقف أمام هاتين الصورتين المتناقضتين لشخص واحد ؛ بريشة كاتبين لا يعلم إلا الله ماذا كانت دوافعهما و بواعثهما ونفسيتهما وهما يكتبان ، كتابة ستبقى من بعدهما على الزمان . . .

فهرس

صفحة



تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعـــارف
فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥



مجمـــوعة

فنون الأدب العربى

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى . . . ولكنها تعالج الأدب العربى على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .

برنامج المجموعة

- فى الفن الغنائى :

الغزل ، الرثاء ، الوصف ، الهجاء ، المديح ، الزهد والتصوف ، الموشحات والأزجال .

- فى الفن القصصى :

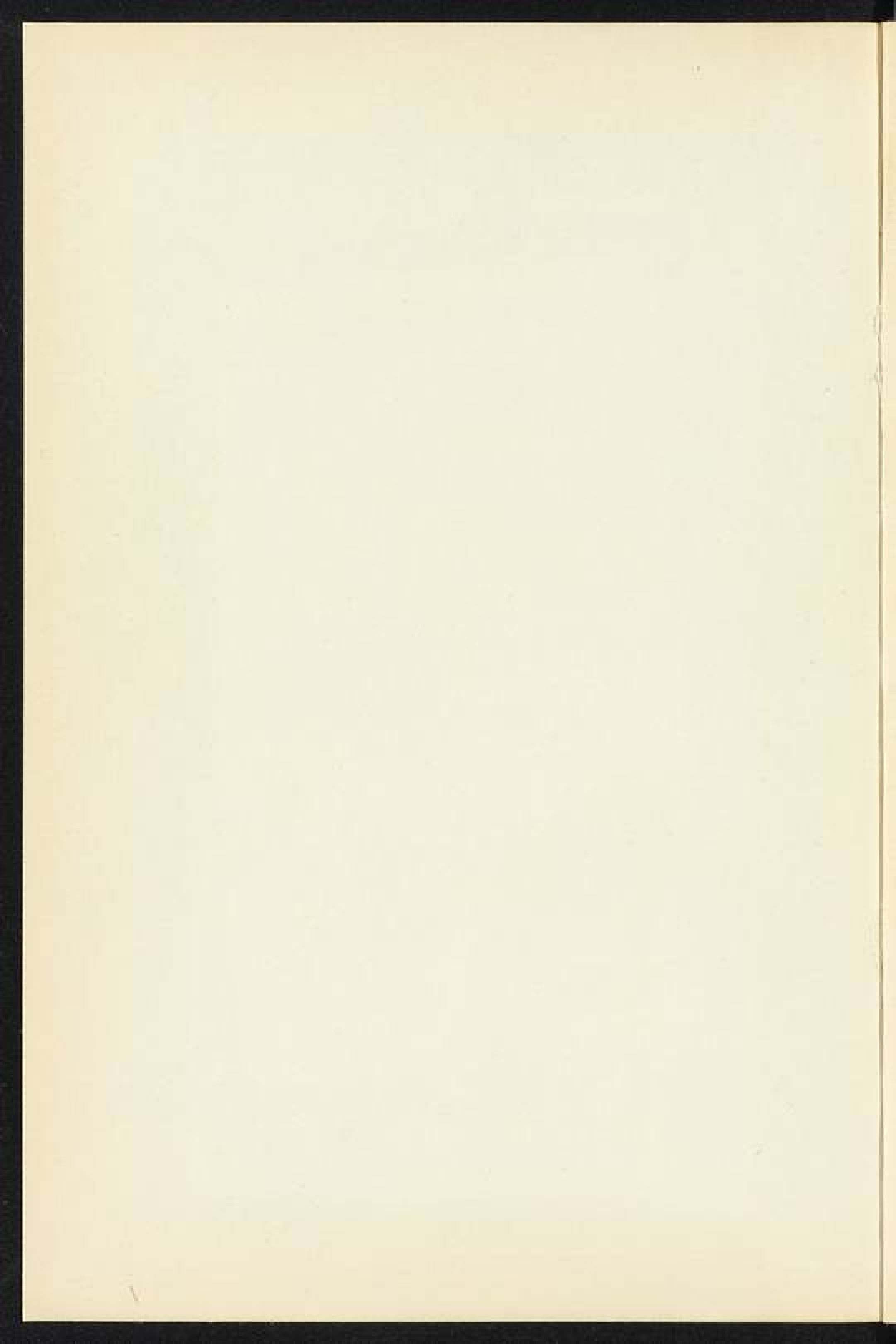
المقامة ، الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة ، الترجمة الشخصية ، التراجم والسير ، الرحلات .

- فى الفن التمثيلى :

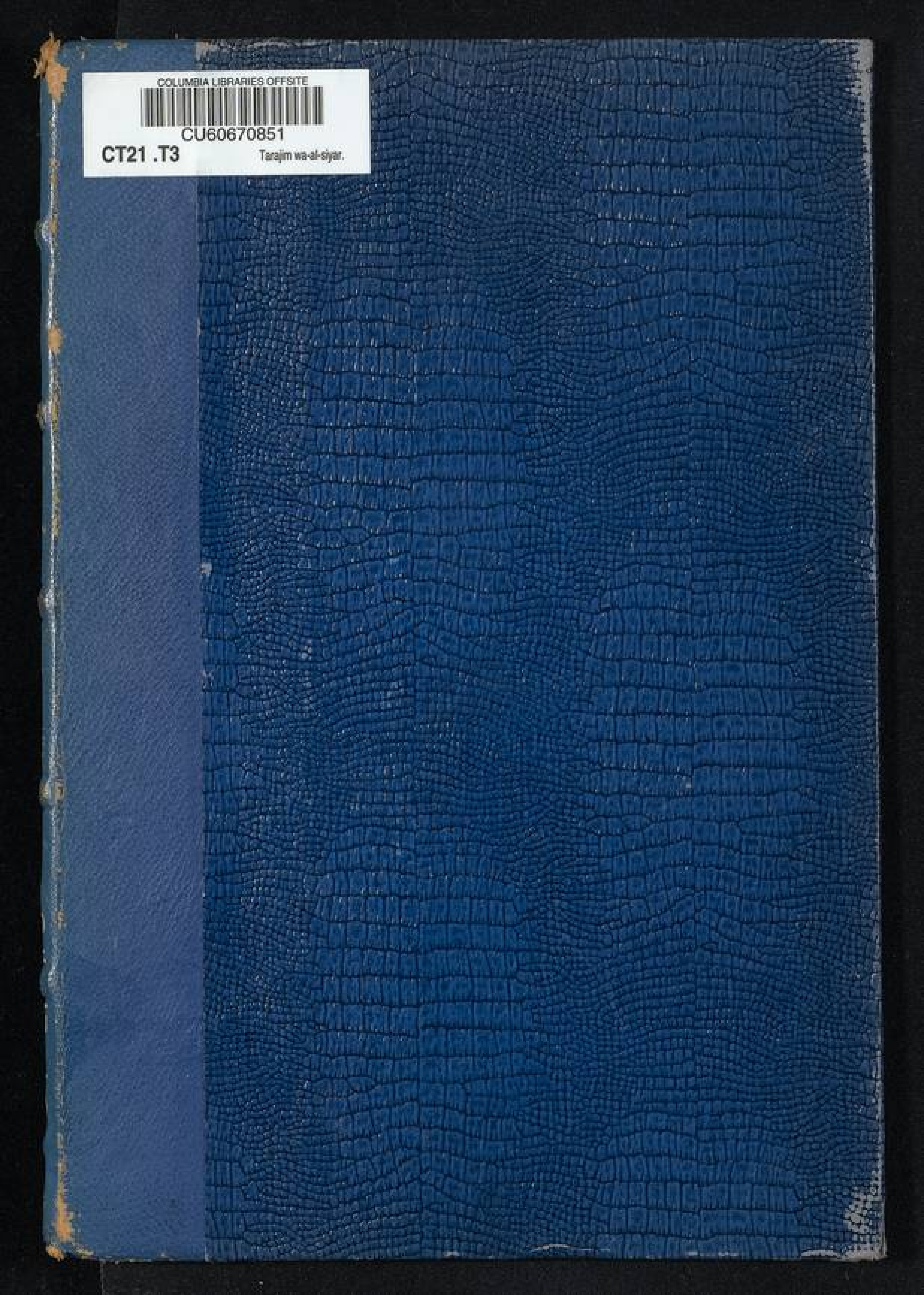
المسرح ، الفاجعة والمأساة ، الملهاة .

- فى الفن التعليمى :

النقد ، الحكم والنصائح والأمثال ، الخطب والمواعظ ، منظومات الشعر .




COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0038633035


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU60670851
CT21 .T3
Tarajim wa-al-siyar.